





Princeton University Library



32101 060747068

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

--	--

هذا الكتاب

هو « طبخة » فنية على حد تعبير مؤلفه الفنان الماهر الاستاذ توفيق الحكيم بك . فقد أعدها في مطبخ فني ، واستحضر عناصرها وموادها من حوانيت أربعة مشاهير ، هم : الجاحظ ، وابن عبد ربه ، والخطيب البغدادي ، وبديع الزمان . فقد بهره وأسأل لعبابه ما وجدته عندهم من لذائد أشعب ونوادره الطريفة ، فوضع له هذه القصة من هذه الألوان التي ان كانت لا تشبع معدة أشعب ، فهي تشبع نفوس الأدباء .

لقد كان أشعب أمير الطفيليين بلا منازع . وكان يرصد الموائد والطعوم كما يرصد الفلكيون الكواكب والنجوم . وكان أخف الطفيليين ظلا ، وأطفهم فكاهة ، وأظرفهم نادرة . وكانت حياته صورة للمجتمع العربي الفكه اللطيف ، وتكاد معدته يكون لها شخصية ممتازة تستحق أن تؤرخ

واذا كانت الفكاهة ضرورية بين ألوان الطعام ، فان الفكاهة لون لا يستغنى عنه بين ألوان العلم والتاريخ والأدب . وقد أصدرنا في سلسلة كتاب الهلال ألوانا من التراجم العلمية والسياسية والأدبية لشخصيات من عظماء التاريخ ، فلنقدم لهم هذا اللون الفكاهي الجديد عن أشهر رجل كانت حياته مقترنة بأطياب الطعام ، لا بمعارك المدفع والحسام

وكلاء مجلات دار الهلال

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه - السور - العسيلي .
المدخل الشمالى ص ٠ ب ٥٤٣ بيروت

حلب : الشيخ طاهر النعسانى

حماء : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخله سكاف

حمص : السيد عبد السلام السباعى - ص ٠ ب ٤٩

هكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس - ص ٠ ب ٩٧

البحرين والخليج : السيد مؤيد أحمد المؤيد - مكتبة المؤيد -
البحرين : الفارسى

البرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi,
Rua Varnhagem 30,
Caixa Postal 3766,
Sao Paulo, Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400,
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجيريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكري زيدان
مدير التحرير : طاهر الطناحي

.....

العدد ١٢ - ابريل ١٩٥٢ - رجب ١٣٧١

No. 12 — April 1952

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتب

كتاب الهلال - بوسطة مصر العمومية - مصر
التليفون : ٧٩٨١٠ (تسعة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) - مصر والسودان
٨٥ قرشا صاغا - سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية
او لبنانية - الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش
صاغ - فى الامريكتين ٥ دولارات - فى سائر
انحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا او ٣٠/٩ شلنا

Hakim

البركات زعمال له بن قصه زنة دن
مع اصره نماح

أشعب

أمير الطفيليين

تأليف

توفيق الحكيم بك

دار الهلال بمصر

(RECAP)

PJ7519

A843



مقدمة

الأدب العربي القديم من أعرق الآداب وأبرعها في
رسم الأشخاص وتصوير الطبائع . وما من عجب في
ذلك ، فهذا الأدب وليد حضارة ذكية خلاقة . انما
العجب هو أن يبقى أكثر آثاره وكنوزه بعيدا عن متناول
العالم الغربي الذي رشف من نبع الاغريق والرومان ..
أغلب الظن أن علة ذلك ترجع الى اختلاف النظرة الى
الجمال الفني عند العرب والغرب . فالعرب يرون الفن
الأعلى في الإيجاز ، أى التركيز ، فى حين أن الغرب
يرى الفن الأسمى فى الاطناب أى التحليل .. وكان من
أثر الإيجاز أن اكتفى العرب فى رسم شخصية أو تصوير
طبع بنادرة تروى أو حادثة تذكر أو بيت من الشعر
ينظم ، فيجدون فى ذلك متعتهم وبغيتهم .. بينما الغرب
لا يكتفى باللمحة الحاطفة ولا تشبعه النادرة العابرة ،
فهو يريد اللوحة الكاملة ذات الحوادث المتصلة ..
والنظرتان الى الفن صحيحتان . فللايجاز جماله وقوته
.. وهو يفترض فى المتذوق له ذكاء وفطنة وتصورا

وعلماء ، فيبصر الكثير من خلال القليل ، ويلمح الصورة
التامة من وراء الجزء المقتضب .. فن يبدعه منشيء بارع
لقارىء بارع .. يتباريان فى ميدانه ، منتضيين أسلحة
متكافئة من الذوق والفهم ..

كما أن للتحليل أيضا مزاياه .. فهو يفترض فى
المتذوق له خلو الذهن أو قصور الخيال .. فىرى من
واجبه أن يعاونه ويكون فى خدمته ، وأن يحتال بالاسهاب
والتفصيل ليعلم من لا يعلم .. فيجذب من الناس عديدا
ينشر فيهم دعوته ويبلغهم رسالته ..

لو استطعنا أن نوفق بين النظريتين ، ونجمع بين الفنين
.. لكانت النتيجة أتم والفائدة أعم ..

وهذا ما أخذت به نفسى حين وضعت هذا الكتاب فى
عام ١٩٣٨ فى ذلك الاطار الذى يظهرنا على صورة من
المجتمع العربى فى ذلك العصر ، نكاد نلمس لها وشائج
قربى بما نراه اليوم فى بعض أحياء مدننا وعادات
مجتمعنا .. فالمالك والمستأجر وما بينهما من علاقة ،
والمنازل ومرافقها ، والسوق وحركتها ، والولائم
ومراسمها ، والحمام وزبائنه ، والحلاق وطباعه .. كل
تلك الصور عن الحياة الاجتماعية كما بدت من الأدب
العربى القديم ، قد راقتنى فيما راقتنى من طبائع

وأشخاص رأيت أن أبرزها الى جانب شخصية
« أشعب » .. ذلك الراصد للموائد والطعوم كما
يرصد الفلكي الكواكب والنجوم .. وأشهد أني ما رأيت
قط في أدب من الآداب صورة لطيفي أدق من صورته
.. فتبعت آثاره وتنسمت أخباره ، وطفقت أجمع نواته
من كتب الاقدمين .. وأمزجها وأخلطها وأطبختها ..
على حد تعبيرى فى بيان الطبعة الاولى .. اذ قلت يومئذ:
« ما دمنا فى صدد «المعدة» - أعنى معدة أشعب - فلا بين
للناس كيف طبخت لهم هذا اللون من ألوان الأدب .
لقد استحضرت اللحم والبقل والتوابل والابازير من
حوانيت أربعة مشاهير : « الجاحظ » و « ابن عبد ربه »
و « الخطيب البغدادي » و « بديع الزمان » . فقد بهرنى
حقا وأسأل لعابى ما وجدته لديهم من اللذائذ والطرائف .
غير أني وجدت كل هذا مبغثا ضمن بضاعتهم ، وملقى
على غير نظام ، حتى وقع الملح على السكر . كما وجدت
أكثر هذه الاشياء شائعة مكررة بنصها وتفصيلها عند
الأربعة ، كل يضعها من حانوته نفس الوضع ، ويعرضها
عين العرض . فملأت يدي مما تخيرت من أطايبها
وذهبت به الى « مطبخ » فنى ، حيث مزجته وخلطته
وجعلت منه « عجينة » واحدة ، صنعت منها هذه القصة
المتصلة الفصول ... »



أشعب وجارتيه رشاً

انتصف النهار ، وصاح مؤذن الظهر ، لا من مسجد
ذلك الحى من أحياء « المدينة » ، لكن من بطن « أشعب » :
أشهر الطفيليين فى عصره ، وأظرفهم حديثا ، وأقبحهم
وجها ، وأزراهم هيئة ، وأجملهم صوتا وأحذقهم فى
فنون الغناء

وكان جالسا الى معشوقته « رشأ » من أول النهار ،
يحادثها ويضاحكها ويطارحها الغناء منشدا :
دموع عيني لها انبساط ونوم عيني به انقباض
وكانت الحسنة متكئة على فراش من ديباج أخضر ،
فى دارها الصغيرة ، أمام بستان قد أزهى بنبت الربيع .
فأجابته مترنمة ، والسحر والفتنة يكادان ينطقان فى
عينيها :

هذا قليل لمن دهره بلحظها الأعين المراض
فتهد العاشق ورفع عقيرته :

فهل لمولاتي عطف قلب أو للذي في الحشا انقراض؟
فأجابته الجميلة في ابتسامها الفاتن ، ولفظها العذب
وصوتها الرخيم :

ان كنت تبغى الوداد منا فالود في ديننا قراض
فتنهد أشعب هذه المرة تنهدا طويلا ، وأرسل بصره
الى النافذة ، ورأى ميل الشمس ، فتململ والتفت يمنة
ويسرة ثم قال للحسنة صاحبة الدار :

- مالى لا أسمع للطعام ذكرا !؟

فتغير وجه الجميلة وقالت :

- سبحان الله ! أما تستحى يا شيخ ؟ أما فى وجهى
من الحسن ما يشغلك عن هذا ؟!

فسكت أشعب كالخجل . ثم جعل ينظر الى وجهها
وعينها متمسكا بأهداب الصبر والقناعة
فقالت له :

- امض فى غنائك ، فانك حسن الغناء . أسمعنى
صوتا لم أسمعه من قبل . ما هو أحسن الغناء عندك ؟
فأجاب أشعب بغير تردد :

- هو نشيش المقل !

فقلت له فى شىء من الامتعاض والتأيب :

- أهذا كلام يقال فى مثل هذا الموقف الذى نحن فيه؟

- صدقت • لقد كان يجمل بى أن أتحدث عن الحب

الذى فى الحشا !

وأمسك بالعود مرة أخرى . فأسرعت الجارية تقول :

- نعم ، صف لى ما فى الحشا من الحب

فنظر اليها العاشق مليا :

- وماذا كنت أصنع اذن منذ الصباح ؟

- زد فى الوصف

- وصف ماذا ؟

- ما فى الحشا من الهوى

- من « الهوا » .. هذا والله صحيح

ورفع العاشق عقيرته بالغناء :

إذا كان فى بطنى طعام ذكرتها

وان جعت يوما لم تكن لى على ذكر

ويزداد حبى ان شبت تجددا

وان جعت غابت عن فؤادى وعن فكرى

ولم تر الجارية مع صاحبها هذا حيلة ، فقامت تهيباً
له الطعام . ولم تمض ساعة حتى فاز أشعب ببغيته الحقيقية
ووضع أمامه الخوان . وكان هذا العاشق الولهان اذا
أكل ذهب عقله وجحظت عينه وسكر وسدر وانبهر ،
وتربد وجهه ، ولم يسمع ولم يبصر . فتناول القصعة
وهي كجمجمة الثور فأخذ بحضنها ، وما زال ينهشها
طولا وعرضا ورفعا وخفضا ، لا يفصل ثمرة قط عن
ثمرة ولا يرمى بنواة قط ولا ينزع قمعا ولا ينفي عنه
قشرا ولا يفشسه مخافة السوس والدود . فلما رأت
صاحبه ما يعتريه وما يعترى الطعام منه ، لم تزد على أن
همست كالمخاطبة لنفسها :

— هذا والله هو العشق !

ثم نظرت اليه ، وقد انتقل الى ألوان أخرى من
الطعام جعل يخاطبها قبل أن يمد اليها يده :

— بارك الله فيك من « فالوذج » صاف يقرأ نقش
الدرهم من تحتك ! بارك الله فيك من ثريدة ملساء كأنها
خد الحبيب ! بارك الله فيك من خبز رقاق كأنها آذان
الفيلة !

وهجم بيديه كأنه طالب ثار ، فابتدرته الجارية قائلة :
- أتجنبني ؟

فلم يجب ، ولم يلتفت اليها ، ولم يد عليه أنه سمع
منها شيئا . ومضى فى التهامه ومضغه . فتوسلت اليه أن
يتكلم فصاح متبرما :

- أما سمعت قول من قال : « اذا كنت على مائدة فلا
تكلمن فى حال أكلك ، وان كلمك من لابد من جوابه
فلا تجبه الا بقول نعم ، فان الكلام يشغل عن الأكل ،
وقول « نعم » مضغة
فضحكت القينة . ثم قالت :

- ولكنك لم تجنبني حتى بقول « نعم »
فنظر اليها وفمه ممتلئ نظرة من يسألها عما قالت ،
فقد نسي ، فأجابت :

- سألتك « أتجنبني » ؟
فلم يلفظ حرفا ، وأين له الفم الذى يلفظ شيئا ؟
فسكتت الجارية لحظة ، ثم رأت أن تحتال عليه وتخرجه
فقالت :

- أتحب أبا بكر الصديق ؟

فبلع لقمة وشرب جرعة من ماء ، ونظر إليها نظرة
المعتذر المشغول عن الجواب ، غير أنها مضت في تضيق
الحناق عليه :

— أتجب عمر بن الخطاب ؟

وصادفت العاشق فترة فراغ بين لقمة ولقمة ، فأجابها
على عجل ويده مسرعة الى الحوان :
— ما ترك الطعام في قلبي حبا لأحد !



قام أشعب عن الحوان الذي كان ، وهو يتجشأ ويقول
لصاحبه :

— جعلت فداك ما أكرمك ! اذا كان غدا فاصنعى لى
هريسة ، فأنت أحذق بها
فقالت له باسمه :

— انك لشديد النسيان • أما تذكر أنك من أيام قد
تشهيت على « هريسة » فبعثت بها اليك ؟
فصاح العاشق طربا :

— نعم . فانى أشهى عليك اذن « لوزينج » رق قشره

واشتدت عذوبته ، غريقا في سكر ودهن لوز ... يشد
فؤاد الحزين ويرد نفس الشجين ، ابغى لى به غدا
أصلحك الله ، مع شىء من النيذ وما يصلحه
فقلت :

— أنسيت أنى بعثت اليك منذ ليل هذا اللوزينج
وهذا النيذ
فقال :

— اذن فانى أستهى ، حفظك الله وأبقاك ، ثريدة دكاء
من الفلفل ، رقطاع من الحمص ، ذات جناحين من اللحم
فأضرب فيها كما يضرب الولى السوء فى مال اليتيم
فقلت كالمخاطبة لنفسها ، ساخرة :

— أبقاك الله وحفظك ، رأينا الحب يكون فى القلب ،
وحبك ليس يجاوز المعدة !
— لم أسمع منك ! ماذا قلت ؟
— لا شىء ! أخبرنى أنت • أين دارك ولماذا لم تدعنى
يوما الى طعامك ؟

فنظر اليها أشعب نظرة الجزع والذعر :
— دارى ؟ أما علمت أنى أسكن عند الكندى !

— ومن الكندی ؟

— هو أبخل أهل الأرض طرا ، وهل يستطيع ساكن
أو جار أن يصنع طعاما دون أن يبعث الى صاحب الدار
بطبق . انه لا يزال يقول للساكن وربما للجار : « ان
فى الدار امرأة حبلى ، وان الوحى ربما أسقطت من
ريح القدور الطيبة ، فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة
أو لعقة . فان لم تفعلوا ذلك بعد اعلامى اياكم فكفارتكم
أن أسقطت غرة عبد أو أمة » ، فكان بذلك ربما يوافى
منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الايام . فياكل
هو وعياله ويقول لهم : « أنتم أحسن حالا من أرباب
هذه الضياع . فلكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان » ،
فهل تريدین أصلحك الله ، أن أدعوك الى دار مثل هذا
الرجل ؟

فضحكت وقالت :

— أفقر هو ؟

— انه أغنى أهل المدينة !

فصمت الجارية لحظة ، ثم نظرت الى أشعب مليا

وقالت :

- ولكنى أريد أن أموت وآكل من طعامك !

فتفكر العاشق قليلا ثم أجاب :

- مهلا سيدتى . سأدعوك ان شاء الله الى طعام وشراب
وغناء ..

- متى ؟

- يوم يحين وقت ذلك

ثم أسرع فاستوى قائما ومد اليها يده مودعا ، فمدت
اليه يدا صغيرة كأنها حلية من عاج ، فلمح فى اصبعها
خاتما ، فاستبقى يدها فى يده وقال فى صوت يسيل رقة
ولطفا :

- سيدتى جعلت فداك ! ناولينى هذا الخاتم الذى فى
اصبعك لا أذكرك به

فمسحت يدها فى رفق وتضاحكت فى خبث وقالت :

- انه ذهب وأخاف أن تذهب

ثم أسرع فالتقطت من الأرض عودا يابسا سقط عن
شجرة قرب النافذة وأعطته اياه قائلة :

- ولكن خذ هذا العود لعلك تعود !

أشعب والكندی البخيل

جاء العصر وأشعب يتسكع فى الاسواق الى أن انتهى
به المطاف أمام بستان من بساتين الكندى . فوقف وأرسل
بصره ، فوجد صاحبه جالسا تحت شجرة على ماء جار
وسط خضرة ، وقد بسط بين يديه منديلا فيه لحم سكباج
بارد وقطع جبن وزيتونات وصرة فيها ملح وأخرى فيها
أربع بيضات . فاقرب منه ومر به مسلما عليه . فرد
الكندى السلام قائلا :

— هلم عافاك الله

واذا أشعب أسرع من خطف البرق فى صحن
السما قد انثنى راجعا يريد أن يعدى جدول الماء . فصاح
به الكندى وهو يأكل :

— مكانك ، فان العجلة من عمل الشيطان
فوقف أشعب مأخوذا . . . فسأله الكندى :
— تريد ماذا ؟

فأجاب أشعب :

- أتريد أن أتغدى

فحملق فيه الكندى :

- ولم ذلك ؟ وكيف طمعت فى هذا ؟ ومن أباح لك
مالى ؟

فقال أشعب :

- أو لست قد دعوتنى ؟

فأجاب الكندى :

- ويلك ! لو ظننت أنك هكذا أحقق ما رددت عليك

السلام . ماذا كان بيننا غير سلام ورد سلام ، أى كلام
بكلام ، ولكنك تريد أن يكون كلام بفعال . وقول بأكل ،
فهذا ليس من الانصاف

وازدرد الرجل بيضة مما بين يديه . وجعل أشعب
ينظر اليه لحظة ثم قال له :

- لقد رأيتك تأكل وحدك

فبلع الكندى ريقه ثم قال :

- ليس على فى هذا الموضع مسألة . إنما المسألة على

من أكل مع الجماعة، لأن ذلك هو التكلف. وأكلى وحدي هو الأصل. وأكلى مع غيري زيادة في الأصل. وإذا كانت الوحدة خيرا من جليس السوء. فإن جليس السوء خير من أكل السوء. لأن كل أكل جليس. وليس كل جليس أكلا !
فقال أشعب متخابثا :

— انما أردت أن أؤاكلك لأسخيك وأنفى عنك اسم البخل

فأجاب الكندي وهو يلقي في حلقه زيتونة :
— لا أعدمنى الله هذا الاسم. فانه لا يقال فلان بخيل الا وهو ذو مال ، فسلم الى المال وادعنى بأى اسم شئت.
فقال أشعب :

— ولا يقال أيضا فلان سخي الا وهو ذو مال. فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال ، أما اسم البخل فقد جمع المال والذم. فأنت قد اخترت أخسهما وأوسعهما
فقال الكندي :

— بينهما فرق

فقال أشعب :

— ما هو ؟

فأجاب الكندى :

— فى قولهم بخيل تثبيت لاقامة المال فى ملكه . وفى قولهم سخرى اخبار عن خروج المال من ملكه . فالبخل اسم فيه ذم ولكن فيه حفظا ، والسخاء اسم فيه حمد ولكن فيه تضييعا . والمال حقيقة ومنفعة وحيازته قوة ، أما الحمد فهو ربح وسخرية والاستماع له ضعف ! وماذا ينفع الحمد اذا جاع البطن وعرى الجلد وضاع العيال وشتت الحساد ؟!

وظل يأكل ، وأشعب ينظر اليه ، حانقا فى دخيلة نفسه على هذا اللؤم ، الذى لا تنفع فيه حيلة . غير أنه تلتطف له ودنا منه قائلا :

— وما عليك لو جلست اليه ساعة أغنيك حتى تطرب وأضحكك حتى يزول عنك هذا القطوب

فصاح الكندى :

— لا أريد أن أطرب الساعة ولا أن أضحك

— وما يمنعك من ذلك ؟

— يمنعني منه أن الانسان أقرب ما يكون من البذل
والعطاء اذا طرب وضحك

فأسقط في يد أشعب ولم يدر من أي مدخل يدخل
الى هذا الرجل ، وهو كلما فتح له بابا أغلقه . ولم يقنط
أشعب مع ذلك . وخطر له خاطر أعجبه . فأسرع يقول
لصاحبه :

— لقد ظفرت لك بساكن جديد ، رضى أن ينزل
دارك الحالية وقبل دفع الأجر وقضاء الحوائج والوفاء
بالشرط ...

فأبرقت أسرة الرجل ووضع اللقمة من يده وقال :

— وأين هو عافاك الله ؟

— اذا رأيت أن أدعوه ..

— متى ؟

— الليلة الى عشائك

— عشائي !

وعاد الى قطوبه ، فأراد أشعب أن يهون عليه الخطب
فقال له :

- لا تتكلف شيئاً لهذا الضيف ، انه يرضى بما حضر

فأسرع الكندي يقول :

- ليس يحضر شيء ، وقولك « بما حضر » معناه أنه

لا بد من أن يقع على شيء

فقال أشعب :

- قطعة مالح ...

- وقطعة مالح أليست هي شيئاً ؟

- نكتفى بالشرب اذن على الريق

- لو كان عندنا نبيذ كنا في عرس

- أنا أحضر النبيذ

فقال الكندي للفور :

- اذا صرت الى احضار النبيذ فأحضر أيضاً ما يصلح

للنبيذ ..

فقال أشعب :

- ليس يمنعني والله من ذلك ومن احضار النقل

والريحان الا أن أحسب أنا صاحب الدعوة وليس يجوز

ذلك ، الا أن يكون لك فيها أثر

ففكر الكندى لحظة ، ثم صاح كمن وجد الفرج :
- لقد انفتح لى باب : لكم فيه صلاح وليس على فيه
فساد

والتفت الى نخلة عالية ملساء كأنها ثعبان قائمة فى
طرف من أطراف البستان وقال :

- فى هذه النخلة زوج يمام ولهما فرخان مدركان ،
وان نحن وجدنا انسانا يصعداها . ولم يطيرا ، فهما قد
صارا ناهضين ، جعلنا الواحد « طباهجة » والاخر
« كردجا » فكان نعم العشاء ، فهل لك يا أشعب فى صعود
هذه النخلة

فنظر أشعب الى النخلة وقد كاد رأسها يمس السحاب ،
وصاح :

- هذه لا تصعد ولا يرتقى عليها الا اذا كان اليوم
آخر عمرى ، وأردت من ذلك دق عنقى ، اللهم اغنى
عنك وعن طعامك يا شيخ !



وأراد أن ينصرف يائسا ، ولكنه فكر فى أمر عشاءه



وقال أشعب للكندی : « هذه لاتصعد الا اذا كان اليوم آخر عمری »

وليس في المدينة الليلة وليمة ولا عرس ينسل اليه ، فعاد
ينظر الى النخلة ، فرأى مرة أخرى أن علوها الشاهق
يملاؤ النفس رعبا ، وأدرك أن صعودها لا يقدم عليه الا
من طلب الموت ، فأخبر الكندي أن يعفيه وأن يطلب في
الجيران انسانا يصعداها ، فسألوا الجيران فلم يقبل أحد أن
يفعل ذلك ، ودلهم بعض الناس آخر الأمر على أفكار
تلك حرفته ، فما زال الرسول يطلبه حتى وقع عليه ،
فلما جاء ونظر الى النخلة تردد هو أيضا ، فما زالوا به
يشجعونه ويغرونه حتى استخار الله وارتقى النخلة ،
فلما صار في أعلاها طار أحد الفرخين ، فأنزل الآخر
وسلمه الى الكندي ، ووقف يتصبب عرقا في انتظار
الأجر ، فأخرج الكندي « فلسا » وضعه في يد الأفكار
فنظر فيه مليا ثم أراه للحاضرين من الجيران والمشاهدين ،
فقالوا جميعا :

— فلسا بعد هذا الجهد كله ، وهو غنى ! . لو كان
أعطى درهما على الأقل ، انه ذو مال !

فالتفت اليهم الكندي صائحا :

— اننى لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم !

وأشاح بوجهه عنهم والتفت الى أشعب قائلاً :

— الآن قد ظفرنا بالعشاء ، فابعث لنا في طلب صاحبك
الساكن الجديد

فنظر أشعب اليه شزراً :

— فرخ يمام واحد ، هو « الطباهج » و « الكردناج »
وهو كل العشاء ؟!

ففكر الكندي لحظة ثم قال :

— انتظر ، لا تبرح

وأشار الى الأكار الواقف يتميز غيظاً ، فترضاه
وأغراه وذهب به وغبرا ملياً ، ثم عادا يحملان أرزا
بقشره ، وليس معهما شيء مما خلق الله الا ذلك الأرز .
فلما صار الكندي الى بستانه كلف الأكار أن يجشه في
مبجشة له ، ثم ذراه ، ثم غربله ، ثم جش الواش منه .
الى أن فرغ الأكار من ذلك كله فكلفه الكندي أن يطحنه
على ثوره وفي رحاه . حتى فرغ من طحنه . فكلفه أن
يغلي له الماء وأن يحتطب له وأن يعجنه بالماء الحار لأنه
به أكثر نزلاً ، ثم كلف الأكار أن يخبزه . ثم طلب
الى أشعب وبعض الحاضرين من صبية الجيران أن ينصبوا

له فى الجدول الشصوص للسّمك. وأن يسكروا الدراياجة
على صغار السّمك كى لا تدخل فى السواقى ، وأن
يدخلوا أيديهم فى حجرة الشلابى ، حتى يصيبوا من
السّمك شيئاً يجعل كباباً على نار الحبز تحت الطابق فلا
يحتاج من الحطب الى كثير . فما زال أشعب منذ ذلك
العصر الى الليل فى كد وجوع وانتظار الى أن أذن الله
بالفرج وفرغ من أداء نصيبه من العمل ، وجاء الخبر من
بيت الكندى أن اليمامة التى كان قد بعث بها لتطبخ
طاهجاً ، قد نضجت ، فصاح الكندى صيحة الظفر :

— يا أشعب ! هلموا الى عشائى ، وهنيئاً مريئاً لكم
طعامى . فأحضر صاحبك الى دارى تجدوا الخوان قد
نصب كأنه ايوان كسرى وعرش هرقل !



جربى أشعب الى صديق له من طرازه يدعى « بنان »
فقص عليه الأمر وتوصل اليه أن يأتى معه الى دار الكندى
فيظهر له أنه الساكن المنتظر حتى يبرأ أشعب من وعده:
فاذا انتهى العشاء . وعابن الصديق الدار كان له أن

يتعلل ويتمنع ويبدى الرفض ويطلب الفسخ ، ولم يكن
عند بنان فى تلك الليلة ما يتعشى به هو أيضا . فما علم
أن العشاء مضمون حتى خرج من داره الحالية لوقته مع
أشعب .. وسارا فى الطريق فأوصاه أشعب أن يفهم
الكندى أول الأمر أنه قابل الكراء وقضاء الحوائج والوفاء
بالشرط

فالتفت بنان الى صاحبه قائلاً :

— قد فهمت دفع الكراء وقضاء الحوائج فما معنى الوفاء
بالشرط ؟

فأجاب أشعب :

— فى شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ،
وبعر الشاة ، ونشوار العلوفة ، وأن لا يخرجوا عظما
ولا يخرجوا كساحة ، وأن يكون له نوى التمر وقشور
الرمان ، وغرفة من كل طبخة لمن يزعم أنها حبل فى
بيته



أقبل الضيفان على دار الكندى فألفياه قد أعد الحوان

وجلس فى انتظارهما يتلمظ ويقول :
ومن البلية فى الموائد أن يرى
قوم جوع فى انتظار القادم
فقد أشعب من الفور أمام الطعام وأجلس زميله جواره
وهو يقول :

سواء علينا أقدموا أم تأخروا
نوافى مع الطباخ ساعة يغرف
وأشار الى صاحبه بنان بعد أن غمزه بكوعه :
- لقد انتظرت صاحبى هذا انتظار الأكل للشبع !
فقال الكندى :

- انتظرته اذن قليلا ؟

فأجاب بنان للفور :

- نعم ، لقد انتظرنى مقدار ما يأكل انسان رغيفا !
وتناول الحبز. فقال الكندى : لقد انتظرك اذن طويلا
ولم يلتفت الضيفان الى صاحب الدار ولم يجيباه بعد
ذلك . وأشعب وبنان اذا تقابلا على خوان لم يكن لأحد
معهما حظ فى الطيبات ، فما جاءت القصعة فيها الثريدة
كهية الصومعة مكللة بتلك اليمامة المعهودة ، حتى أخذ

أشعب الذى يستقبله ثم أخذ ما عن يمينه وأخذ ما بين
يدى صاحب الدار ثم مال على جانبه الأيسر فصنع مثل
ذلك ، وعارضه زميله بنان وحاكاه . فلما أن نظر الكندى
الى الثريدة مكشوفة القناع مسلوكة عارية ، والفرخ كله بين
يدى أشعب وزميله الا قطعة جناح صغيرة بين يديه ،
تناولها فوضعها قدام الضيف الجديد واحتسب بها فى
سبيل الكرامة والبر والضيافة ، وهو يتميز ويقول ليخفى
غيطه الكظيم :

— قالت الحكماء : « عليكم بشرب الماء على الغداء » فلو
شرب الناس الماء على الطعام ما اتخموا . وذلك أن الرجل
لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء ، وربما كان
شبعان وهو لا يدري ..

فقال بنان :

— شبعان ! والله نحن انما نسمع بالشبع سماعا من
أفواه الناس ! ثم مد يده الى الحبز . فغمزه أشعب
هامسا :

— تمهل وتحشم ، الا يظن الينا ويفر منا . أنت
لا تعرفه : لأن يطعن طاعن فى الاسلام أهون عليه من

أن يطعن في الرغيف الثاني !

فسحب بنان يده ، وهو يهمس في أذن أشعب :

- أويريد أن يكون بين الرغيف والرغيف فترة نبي؟!

ولحظهما الكندى وظن أنهما يتساران في أمر الخبز
ويستصغران حجمه . فأمسك برغيف ورطله في يده
وقال :

- يقولون ان خبزي صغير ! فمن الزانى ابن الزانية

الذى يستطيع أكل رغيفين منه !

فبهت بنان ، وأراد أن يفتح فاه ، واذا بالباب قد فتح
عليهم ودخل جار للكندى ، قرأ الجميع السلام وهم
يأكلون فردوا عليه ، ولم يعرض الكندى عليه الطعام ،
فاستحيا أشعب من الرجل وهو جاره في السكن ، فما
تمالك أن قال له :

- سبحان الله ! لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل

فتأدب الرجل وقال حياء :

- قد والله فعلت

فأسرع الكندى يقول :

— ما بعد القسم بالله شيء

فكتف الرجل بذلك كتفا لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا ، وتركه في مكانه لا يريم . ولو مد الرجل يده بعد ذلك وأكل لشهد عليه بالكفر . ورأى الرجل دقة موقفه فتحرك منصرفا خجلا . فرق له أشعب وقال له :

— أين تريد ؟

فقال الرجل :

— الى منزلى أتوضأ

فقال له أشعب :

— ولماذا لا تتوضأ ها هنا ؟ فان الكنيف خال نظيف ،

والغلام فارغ نشيط ، وليس من الكندى حشمة ، ومنزله منزل اخوانه

فدخل الرجل فتوضأ . والكندى ينفخ من الغيظ ، ولحظه أشعب فقال له :

— هون عليك . انما كل بغيتى أن أسخيك وأنفى عنك

التبخیل وسوء الظن

فقال الكندى :

— فهمنا أن تدعو الناس الى غدائي لتسخيني ، ولكن
لا أفهم أن تدعوهم ليخروا عندي !

وعاد الرجل فجلس عن كذب وأخرج من جيبه رقعة
قدمها الى الكندي قائلا :

— جاءتني رقعتك اليوم وفيها أنك تزيد على أجرة الدار
خمسيتين ، لأن ابن عمي ومعه ابن له قد نزلا على
ضييفين !

فأجاب الكندي على الفور :

— نعم ، اذا كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين
احتملنا ذلك ، وان كان اطماع السكان في الليلة الواحدة
يجر علينا الطمع في ليل كثيرة
فقال الرجل :

— ليس مقامهما عندنا الا شهرا أو نحوه

فقال الكندي :

— ان دارك بثلاثين درهما وأنتم ستة ، أى لكل رأس
خمس ، فأما وقد زدتم رأسين فلا بد من زيادة خمستين .
فالدار عليك من يومك هذا بأربعين

فقال الساكن متعجبا :

- وما يضرك من مقامهما وثقل أبدانهما على الارض
التي تحمل الجبال ؟ ان ثقل مؤنتهما على أنا دونك .
ما هو اذن عذرک لا تعرفه ؟

فترك الكندي الاكل واتجه الى ساكنه قائلا :

- عذرى واضح كالنهار . والحصل الذى تدعو الى
ذلك كثيرة . وهى قائمة معروفة : من ذلك سرعة امتلاء
البالوعة وما فى تنقيتها من شدة المؤونة . ومن ذلك أن
الاقدام اذا كثرت ، كثر المشى على ظهور السطوح ، والصعود
على الدرج ، فينقشر الجص وينكسر العتب ، واذا كثر
الدخول والخروج والفتح والاغلاق وجذب الاقفال ،
تهشمت الابواب وتقلعت الرزات . فساكن الدار هو
المتمتع بها والمتفعل بمرافقتها وهو الذى يبلى جدتها ويذهب
عمرها بسوء تدبيره ، وانه ينسى أن المالك ما أسكن داره
الا بعد أن كسحها ونظفها لتحسن فى عين المستأجر ،
فاذا خرج هو ترك فيها مزبلة وخرابا لا تصلحه الا النفقة
الموجعة ، ثم لا يدع بعد ذلك مترسا الا سرقة ولا سلما
الا حملة ، واذا أراد الدق فى الهاون ترك الصخرة

المجمولة لذلك ودق على الأجداع حيث جلس تهاونا
وقسوة وغشا . هذا فضلا عما يحدثه من الشغب مع
الجيران والتعرض لهم واصطياد طيورهم وتعريضنا
لشكايتهم . فاذا أردنا أن نجعل الغرم بالغنم ، وأن نطلب
بضعة دراهم لاصلاح الفساد المنتظر سمعنا عبارات
الاحتجاج وطولنا بابداء الأعذار والأسباب !

وسكت الكندى فجأة ، فقد حانت منه التفاته الى
الضيفين ، فوجدهما قد انتهزا فرصة اشتغاله بالكلام
وأمعناهما في محو أثر الحبز والسمك ، الا « شبوطة »
كان قد نجح في وضعها بين يديه ، وكان قد أكبر أمرها
لسمنها وكبرها ولشدة شهوته لها ، وكان قد ظن عند
نفسه أنه قد خلا بها وتفرد بأطايها ، فما كاد يحسر عن
ذراعيه ويصمد لها حتى هجمت يد أشعب عليها ، فلما
رأى هذه اليد في السمكة رأى الموت الأحمر والطاعون
الجارف وأيقن بالشر وعلم أنه قد ابتلى ، ولم يلبث أشعب
حتى قبض على قفا الشبوطة فانتزع الجانبين جميعا
واكتسح ما على الوجهين . فلما أكل أشعب جميع أطايها
وبقى الكندى في النظارة ، ولم يبق في يده مما كان

يأمله فى تلك السمكة الا الغيظ الشديد ، بينما هو يرى
أشعب يفرى الفرى ويلتهم التهاما صاح به : حسبك
لا يقتلك الطعام !

فأجاب أشعب وفمه ممتلئ :

- اذا كان الأجل موقوتا ، فلا أن أموت شبعاً أحب
الى من أن أموت جوعاً !

وقنط الكندى من الأكل مع هذين الرجلين ،
فانصرف الى الحديث مع جاره الساكن واتفق معه على
الزيادة فى الكراء كما طلب ، وشيعة الى الباب ثم عاد
الى الضيفين فوجدهما قد قاما عن المائدة ولم يبق عليها
شئ . يؤكل . وبنان يتجشأ ويقول :

- لعن الله « القدرية » .. من كان يستطيع أن يصرفنى
عن أكل هذا الطعام ، وقد كان فى اللوح المحفوظ أنى
سأكله !

فكظم الكندى غيظه وقال فى نفسه :

- تعال غدا فان وجدت شيئاً فالعن « القدرية » والعن
آباءهم وأمهاتهم !

وجلس الضيفان بعد أن غسلا أيديهما يتخللان من

الطعام ، وهما على خير ما يكون الانسان راحة وهناء .
وجعل الكندي ينظر الى خوانه منتهك الحرمة ، عليه بقايا
العظام والأشواك كأنها جثث القتلى بعد المعركة ،
فساورته الهموم وتحركت فيه غريزة البخل ، وشعر
بالكرب والغم . فما تمالك نفسه ، وأقبل عليهما يقول
فى نبرة المتوسل :

— أسألكما بالله الذى لا شىء أعظم منه ، أنا الساعة
أيسر وأغنى ، أو قبل أن تأكلوا طعامى ؟
فقالا معا :

— ما نشك أنك حين كنت والطعام فى ملكك كنت
أغنى وأيسر
فقال :

— فأنا الساعة أقرب الى الفقر أم تلك الساعة ؟
قالا :

— بل أنت الساعة أقرب الى الفقر

فلم يحتمل الكارثة، وصاح فى نبرة ألم وندم وغضب:
— آه ! من ذا الذى يلومنى اذن على ترك دعوة قوم

قربوني من الفقر وباعدوني من الغنى ، وكلما دعوتهم
أكثر كنت من الفقر أقرب ؟ !

فرأى أشعب الخطر والضرر كله فى ترك هذا الرجل
على هذه العقيدة فأسرع يقول له :

- ولكن قد فاتك أمر : انك الليلة انما تنفق اليسير
لتجنى الكثير. ما هذا الطعام القليل النفقة الخفيف المؤونة
الى جانب ما سوف تتقاضاه من هذا الساكن الجديد كراء
لدارك الحالية؟ أما كنت تقول الساعة ان الغرم بالغنم؟!..
فأنت والله فى آخر الأمر الغانم الرابع !

فنفكر الكندى لحظة وبدا عليه الاقتناع ، فاطمأن فى
الحال قلبه وانفرجت أساريره وضحك للمرة الأولى
ضحكة الارتياح .. وقال :

- اذن فادع لى !

فرفع أشعب يديه الى السماء وقال :

- من الله عليك بصحة الجسم وبسطة اليد وسعة
الصدر وكثرة الأكل ونقاء المعدة ، وأمتعك بضرر
طحون ومعدة هضوم ، مع السعة والدعة والأمن
والعافية!.. هذه دعوة مغفول عنها !

جعل أشعب وبنان يدلان الكندى ويفكهانه ولم يشكا
أنه سيدعو اليهما تلك الليلة بنيذ فيملآن بيته الى الفجر
نزهة ونشوة ، ولكن الكندى جعل يتغافل ويتناوم . فلمح
له أشعب بما يصبو اليه قائلاً :

— ان المجلس والله .. ليس فيه غناء ولا نبيذ فهو
كالبيت الحرب !

فلم يسمع لكلامه صدى . وطال تغافل الكندى فلم
يجد أشعب بدا من التصريح . فأقبل عليه يقول :

— اجعلها مرة ليس لها أخت . ودعوة لن تعود الى
مثلها . واضحك واطرب ليلة فى العمر بقليل من نبيذ !
ولما بلغ منه ومنهما المجهود ورأى الكندى أنهما
مقيمان مصران ، غير منصرفين قبل أن يظفرا منه بما
طمعا فيه ، قام فأحضر لهما قربة نبيذ مع أكواب ووضعها
بين يدي أشعب وقال له :

— الآن غن واطربنى والأمر لله !

فانقض أشعب وبنان على الكؤوس . وشرب بنان
شرب العطشان الصادى . وأفرغ أشعب كأسه فى جوفه
وهو يرفع عقيرته منشدا :

امدح الكأس ومن أبدعها
واهج قوما قتلونا بالعطش
انما الكأس ربيع باكر
فاذا ما لم نذقها لم نعش
فطرب الكندي للصوت ولكنه قال كالمخاطب نفسه :
- والله ما قتلوكم بالعطش . ولكنكم أنتم قتلتم أنفسكم
بالشره

وملأ كأسه وقال : غن أيها المغنى !
فملأ أشعب كأسه وصاح بصوته الجميل :
لا تحفلن بقول اللائم اللاحى
واشرب على الورد من مشمولة الراح
كأسا اذا انحدرت فى حلق شاربها
أغناك لآؤها عن كل مصباح
فصاح الكندي من الطرب صيحة مدوية دعت
الضيفين . وأفرغ فى حلقه كأسا أخرى وهو يقول :
اسقنى حتى ترانى مائلا

وترى عمران دينى قد خرب
وسكر الكندي . وأمعن أشعب فى الغناء :

ما زلت آخذ روح الدين من لطف
وأستريح دما من غير مجروح
حتى انشيت ولى روحان فى جسدى
والدن مطرح جسم بلا روح
فطرب الكندى ولم يدر ما يصنع من شدة الطرب ،
فشق قميصه وقال لأشعب :

- افعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسى ..

فنظر اليه أشعب دهشا ... فصاح الكندى :

- ويلك ، شق أيضا أنت قميصك !

فقال أشعب جزعا :

- أصلحك الله ! أتريد أن أشقه وليس لى غيره !

فقال الكندى : « شقه وأنا أكسوك غدا »

فأجاب أشعب : « فأنا اذن أشقه غدا »

فقال الكندى : « وأنا ماذا أصنع بشقك غدا ؟ »

فقال أشعب : « وأنا ماذا أرجو من شقه الساعة ؟ »

ولبنا فى ذلك وقتا يتساومان، وبنان ينظر اليهما ويمعج

وأخيرا صاح فى الكندى :

- ماكل هذا ؟ انى لم أسمع قط بانسان يحاور ويناطر

فى الوقت الذى انما يشق فيه القميص من غلبة الطرب!
اذا كنت قد طربت الآن حقا ، فاكسه الآن القميص !
وهزت الكندى نشوة الحمر ونخوة الوهم ، فى غفلة
من غريزته النائمة فقام يتعثر الى قميص جديد عنده فأتى
به وكساه أشعب . فلما صار القميص على أشعب ، خاف
البدوات ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فتحين
الفرص ، وأوهم الكندى أنه ذاهب لقضاء حاجة ، ثم مضى
توا الى منزله بالقميص فجعله « برشكانا » لامرأته

ومضى من الليل أكثره وركب النوم الكندى وبنان ،
وهما ما برحا فى انتظار عودة المطرب . فانطرح بنان على
الأرض جاعلا فراشه البساط ومرفقه يده ، ولم يكن
فى المكان غير مرفقة ومخدة . فأراد الكندى اكرام ضيفه
فأخذ المخدة فرمى بها الى بنان فأبأها وردھا عليه . وأبى
الكندى ، وأبى هو . ولبثا هكذا يتطارحان التأذب
ويتقارضان المجاملة فى لسان متلعم وجذع متمايل . الى
أن صاح صاحب البيت آخر الأمر :

— سبحان الله ! كيف يكون أن تتوسد مرفقك وعندى
فضل مخدة ؟!

فأذعن بنان وأخذها فوضعها تحت خده . و مر بعض
الليل دون أن يفرق بنان فى النوم ليس الفراش ورداءة
الموضع . وظن الكندى أن الضيف قد نام . فجاء قليلا
قليلا حتى سل المخدة من تحت رأسه . فلما رآه بنان
قد مضى بها ضحك وقال : قد كنت عن هذا غنيا !

فارتبك الكندى وقال : « انما جئت لآسوى رأسك »
فقال بنان : « انى لم أكلمك حتى وليت بالمخدة »

فأجاب الكندى : « كنت لهذا جئت ، فلما صارت
المخدة فى يدي ، نسيت ما جئت له ، والنبيذ ما علمت
والله يذهب بالحفظ أجمع ! »

وأراد الكندى أن يرد عليه المخدة . فأبى بنان ، فألح
وألح . وعادت المناظرة والمحاورة والمطارحة من جديد .
فلم يخلصهما منها الا غلبة النوم الثقيل فى الهزيع الاخير
من الليل . فانطرحا كأنهما حبران والمخدة عن كتب
منهما منطرحه منفردة وحيدة

وطلع النهار وأحس بنان ضرب الشمس فى وجهه
فنهض ونظر حوله مذعورا ، فأدرك ما كان فيه . ورأى
الكندى ممددا يغط على مقربة منه فأسرع الى نعله فحمله

فى يديه وانطلق الى الطريق قبل أن يستيقظ ...

وعلا النهار ... وأقبل بعض أهل البيت ينقرون على باب الحجرة فصحا الكندى . وفرك عينيه وألقى نظرة على المكان فهم منها كل شىء ، فبحث عن الضيفين فلم يجدهما ، فصاح صيحة منكرة ووضع نعله فى قدميه وانطلق الى مسكن أشعب فدق عليه الباب ، فخرج له فقال له :

— أين الساكن ؟

— لقد تركته بين يديك فأنت الذى تسأل عنه

— وأين القميص ؟

— انك قد وهبته اياه

فقال الكندى فى رفق مصطنع :

— أما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقه

وطلاقه لا يجوز ؟ وبعد فانى أكره ألا يكون لى حمد

ولا شكر ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر فرد

على القميص حتى أهبه لك صاحيا عن طيب نفس . فانى

لا أحب أن يذهب شىء من مالى باطلا

فلم يتحرك أشعب لهذا القول . وعلم الكندى أن

مغنيه ونديمه ومستأجره لا تتطلى عليه هذه الحجج .
فأقبل عليه يقول متلطفا :

— يا أشعب، ان الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤخذون
بشيء فرد القميص عافاك الله !

فقال أشعب مبتسما : « انى والله قد خفت هذا بعينه ،
فلم أضع جنبى الى الارض حتى جئت به لامرأتى ، وقد
زدت فى الكمين وحذفت المقادير ، فان أردت بعد هذا
كله أن تأخذه فخذ »

فقال الكندى على الفور :

— نعم آخذه . لانه يصلح لامرأتى كما يصلح
لامرأتك

ومد ذراعه . فقال أشعب : « انه عند الصباغ »

فقال الكندى : « هاته »

— ليس أنا أسلمته اليه

فعلم الكندى أنه قد وقع ، وأن لا حيلة له ولا منفذ
ولا أمل ولا رجاء ، فقال فى زفرة حارة من كبد محروقة :

— بأبى وأمى ، صدق رسول الله حيث يقول : « جمع
الشر كله فى بيت وأغلق عليه ، فكان مفتاحه : السكر ! »

أشعب وبنان

ما وافى عصر ذلك اليوم حتى جاء أشعب رسول
يحمل رقعة من القينة الجميلة تستنجزه فيها الوعد ،
وتخبره أنها راحلة فى الغد الى شأن من شؤونها فى
الكوفة ، وتعرض له فى ختامها بجفاء قلبه وزيف وده
وتبدى له ربتها فيما يظهره لها من الوجد . فلم يدر
أشعب ما يفعل ولا كيف يجيب . فأمسك آخر الأمر
بالرقعة وكتب فى ذيلها :

أنا والله أهواك ولكن ليس لى نفقه
فأما كنت تهوينى فقد حلت لى الصدقه

فذهب الرسول بهذا الرد الى الجارية ، وخرج أشعب
الى الطريق يستشيق الهواء ويفكر فى أمر العشاء ، واذا
العشيقة قد أقبلت بعد قليل ، فما كاد يراها حتى وقف
فى مكانه حائرا لا حراك به
فسلمت عليه وقالت :

- لا تخش شيئا . انما أتيت لأودعك قبل رحيلي
غدا . والله لولا اشتغالي اليوم بأعداد حوائجي ومتاعى
واخلاء دارى لوافيتك بما تشهيت على من تلك الأُطعمة
التي يحبها قلبك وتهيم بها معدتك !
فقال لها :

- وماذا أنت صانعة فى الكوفة ؟ أذهبة للغناء ؟
فقالت : « نعم ، انك فيما أظن قد رضيتنى حذاقة به
ومعرفة »

فقال : « نعم ، ولكن اختلفى أيضا الى مجمع مولى
الزبير فانه حسن الغناء ، فاعلقى من غنائه أصواتا عشرة .
فانك والله لحليقة أن تفتنى الناسك وتخرجيه من صومعته
ساجدا لك » . فقالت :

- كنت أود أن أنزود منك الليلة بصوت أو صوتين
فسقط فى يد أشعب . وارتبك واشتدت حيرته فلم
ير ما يصنع . وتفكر لحظة ، ثم قال فى نفسه : « ما لى
الا منزل بنان ! » ، ونظر اليها ثم قال : « اتبعينى ! »
وسار وهو يقلب الأمر على وجوهه ، انه

لا يجهل أن وقوع طفيلي على طفيلي لا يجوز ، ولكن
وجود الحسناء معه فيه العذر والحجة ، وقد يرق بنان
لجمالها فيتسع صدره وتبسط يده ويوفى الضيافة حقها .
واقتربا من الباب . فاستوقفها ، ثم ذهب فنادى رفيقه
فخرج اليه فقال همسا :

— أكمل الخير ! معى وجه صبيح ، يعدل الدنيا بما
فيها ، وقد حصل على ضيقة وعسر واملاق
فقال بنان على الفور :

— قد شكوت أنت والله مما كدت أباديك أنا لشكواه!
غير أنه نظر الى ناحية المرأة ورأى رشاقة قدفا فقال:
— ائت بها والله المستعان !

فدخلت القينة خلف أشعب ، واستقبلها بنان بالتحية،
فسفرت فاذا هو يرى وجهها رقيقا كأنه كوكب ، به عينان
مملوءتان سحرا وأنف كأنه قصبه در ، وفم كأنه جرح
يقطر دما . وردت عليه التحية بلسان فصيح ، فحار
بصره وذهب له وجل خطبه وتلجلج لسانه وتغللت
رجلاه، ثم تاب اليه عقله فدعاها للجلوس فى صدر المكان
وسألها قائلا :

- أيتها الجارية ! انسية أنت أم جنية ، سمائية أم أرضية ؟ !

فضحكت القينة وقالت : « بل انسية أرضية واسمى رشاً »

فسر أشعب واطمأن قلبه لما رأى من افتتان بنان ،
وأشدد بصوته الرخيم وصناعته البارعة :

رشاً لولا ملاحته خلت الدنيا من القتن

كل يوم يسترق له حسنه عبداً بلا ثمن

وأشار بأصبعه الى بنان ، فقال بنان :

- اى والله عبد بلا ثمن ، لو سمحت بذلك سيدتى !

فابتسمت له الجارية ابتسامة طار لها لبه فقال :

- انك والله لتختلسين الأرواح بحلاوة ابتسامتك

وتذهلين الأبواب ببراعة منطقك ، فكيف لو كنت تجيدين

الغناء ؟

فتبادلت القينة مع أشعب النظر . ثم انطلقت تغنى :

ولى كبد مقروحة ، من يبيعنى

بها كبداً ليست بذات قروح ؟

أبى الناس، كل الناس، لا يشترونها

ومن يشتري ذا علة بصحيح ؟

فطرب أشعب . وقام بنان من فوره فجلس بين يدي
الجارية وقال :

— كل مملوك لى حر وكل امرأة لى طالق ، لو كانت
الدنيا لى كلها صررا فى كمى لقطعتها لك ، فأما اذ لم
يكن لى من ذلك شىء ، فاللهم اجعل كل حسنة لى لك ،
وكل سيئة عليك على

فابتسمت رشأ وقالت :

— جزاك الله خيرا . فوالله ما يقوم الوالد لولده بما
قمت به لنا

فقام أشعب من فوره وقعد بين يديها وقال :

— كل مملوك لى حر وكل امرأة لى طالق ان كان
وهب لك شيئا أو حمل عنك وزرا . فهو ماله حسنة
يهبها لك ، ولا عليك سيئة يحملها عنك . فلا شىء
تحمدينه وتشكرينه ؟

فضحكت وضحك بنان . . . وأمسك بنان بيدها فلتمها
وقال :

- بحقى عندك

- ماذا ؟

- تزيدين فى السماع

فنظرت اليه وقالت :

- وأنت ، كيف علمك بالغناء ؟

فقال مرتبكا :

- علم لا أحمده

فقالت :

- فعلى م اذن أنفخ بغير نار ! ما منعك من معرفته ؟

فتدخل أشعب قائلا : « منعه من معرفته أن له صوتا

أقبح من وجهى ! »

فنظرت القينة الى بنان وقالت باسمه :

- لن أردك مع ذلك خائبا .. أزيدك فى السماع !

وانطلقت تغنى :

أنا التى لم ير مثلى بشر

كلامى اللؤلؤ حين ينتشر

أسحر من شئت ولست أسحر
ان سبمع الناس كلامى كفروا
فاستخف أشعب الطرب ، ولم يدر ما يصنع . فنهض
فى الحال ونزع عمامته عن رأسه وألقى بها من النافذة .
فصاح به بنان :

— ويلك ، ما فعلت بعمامتك ؟

فقال أشعب :

— تصدقت بها على الشيطان الذى أجرى هذا الكلام
وهذا الغناء على لسانها !
فأخذ بنان للفور عمامته هو أيضا ورمى بها من النافذة
قائلا :

— أتسبقنى أنت الى بر الشيطان ؟ !

وضحكت الجارية . وضحك الجميع . وخرج أشعب
الى الطريق يأتى بعمامته . وخرج بنان خلفه يفعل مثله ،
فما كادا ينفردان حتى همس أشعب فى أذن صاحبه :
— ويحك ! متى الطعام والشراب ؟ هذا والله لا يليق
فأخرج بنان من ثيابه منديلا نفيسا يضمن به ويحرص
عليه ، وقال :

— لا أملك والله غير هذا المنديل

فاختطفه أشعب من يده قائلاً :

— هو البغية

فقال بنان : « خذه .. لا بارك الله لك فيه ! »

وجرى أشعب به توا الى السوق



عاد أشعب مع المساء ، وقد باع المنديل بدينار ،
واشترى لحماً وخبزاً ونبیذاً ، ودخل على صاحبيه بنان
والجارية ، فاذا هما يتساقطان حديثاً كأنه قطع الروض
الممطور ، واذا بنان يقول لها فى شبه همس :

أترى الزمان يسرنا بتلاقٍ ويضم مشتاقاً الى مشتاق ؟

فتجيبه هى بصوت خفى وترجيع شجى :

ما للزمان يقال فيه ؟ وانما أنت الزمان ، فسرنا بتلاقٍ

فوقف أشعب على رأسيهما قائلاً : « ما شاء الله !

ما شاء الله ! »

فاتبها مذعورين ، والتفت بنان الى رفيقه قائلاً : « ما

صنعت ؟ »

فوضع أشعب بينهما الطعام والشراب ، وأخبره بما فعل ، فقال له بنان :

- كيف يصلح طعام وشراب وجلس مع وجهه نظيف
بلا نقل ولا ريحان ولا طيب ؟ اذهب فاكمل الخير !
فخرج أشعب يكمل الخير وهو يعدو عدوا حتى
لا تطول له غيبة ..



وأقبل أشعب بالنقل والريحان والطيب وهو يلهث .
وكان ظلام الليل قد هبط . فألفى باب الدار مفتوحا
كعهده به عند خروجه ، فدخل . وإذا هو لا يرى
لصاحبيه ولا لشيء مما كان قد أتى به أثرا . فسقط في
يده . وبقي متلهفا حائرا يرجم الظنون ويحيل الفكر
سائر وقته ، حتى مضى من الليل جزء ، ونفذ صبره ،
فقال في نفسه :

- أفلا أدور في البيت لعل البحث يوقفني على أثر ؟

ونهض يجوس خلال الدار ، وإذا هو يقف على باب
سرداب ، وإذا صاحبه قد هبطا فيه وأنزلا معهما جميع

ما يحتاجان اليه ، فأكلوا وشربا وتنعما . فلما أيقن أشعب ذلك دلى رأسه ثم نادى زميله :

- ويلك يا بنان !

فلم يجبه أحد . فرفع صوته ونادى ثلاثا . فأجابه آخر الأمر صوت بنان من أعماق السرداب :
وأمسيت فى ليلين : للشعر ، والدجا

وشمسين من : كأس ، ووجه حبيب
ثم سكت الصوت . وأراد أشعب أن يستجلب كلام صاحبيه ، فلم يجيباه ..

فبات وحده ليلة يقصر عمر الدهر عن ساعة منها
طولا وغما . وطلع النهار ، فخرج اليه بنان ، فما كاد يراه حتى وثب اليه صائحا :

- أهذا يصح يا بنان ؟

وجعل يؤنبه ، فقال له بنان :

- يا صفيق الوجه ! منزلى ومنديلى وطعامى وشرابى ،
فما شأنك فى الوسط ؟ !

فبهت أشعب لحظة ، ورأى الجواب مفحما فقال
« متمحكا » :

- حق القيادة والفضول ، والله لا غير !
وظهرت الجارية فى تلك اللحظة ، فولى بنان وجهه
اليها وقال لها :

- بحياتى الا أعطيته حق قيادته وفضوله !
فقالت باسمه : « أما حق قيادته فعرك أذنه . وأما حق
فضوله فصفع قفاه »

فنظر أشعب اليها فاعرا فاه . واستقبله بنان على الفور
فعرك أذنه وصفعه ، فالتفت أشعب قائلا : « ما هذا ؟ »
فأجاب بنان : « الحكم »

فوضع أشعب يده على مكان الصفعة ونظر الى بنان
شزرا :

- الحكم ؟!

فقال بنان باسمه :

- نعم ، جرى الحكم عليك بما جرى لك من العذل
والاستحقاق



مرت أيام ضاقت فيها الدنيا بأشعب حتى نسي شكل

الحبـز وطعم اللحم . فخرج من الجوع يهيم فى الاسواق . فلم يظفر بشىء . ولم يفتح الله عليه بمنظر أكل ولا آكلين . ولم يبلغ أذنيه حتى مجرد ذكر الطعام ، سوى قول جماعة مروا به فى الطريق يتحدثون فى أمر المسيح الدجال . فقال أحدهم :

— ان الدجال رجل يخرج فى سنة قحط معه « جرادق » أصهبانى ، وملح « درانى » و « انجذان » سرخسى !

فتلمظ أشعب وصاح فيهم :

— هذا ، عافاكم الله ، رجل يستحق أن يستمع له ويطاع !

ثم سار فى طريقه على غير هدى ، حتى قاده قدماء الى بيت صديقه بنان ، فوقف تحت نافذته وأنشد :

أنا فى حال تعالى الله ربى أى حال

ليس لى شىء اذا قيل : « لمن ذا؟ » قلت : « ذا لى »

ولقد أفلست حتى تحت الشمس خيالى

ولقد أفلست حتى حل أكلى ليعالى

فأطل عليه بنان من النافذة وقال له : « ادخل ! »

فدخل أشعب مسرعا يقول : « حفظك الله وأبقاك ! »

وجعل يتنسم رائحة قنار أو طعام فى البيت فبادره
بنان بقوله :

- انى لم أدعك من أجل ذلك ! فأنا حالى كحالك
انما قد خطر لى خاطر لعل فيه النجاة لى ولك
- ما هو ، أصلحك الله ؟

- ما قولك لو رحلنا معا اليوم الى مكة فقد نجد فيها
رزقا ؟ وقديما قالوا : فى السفر سبع فوائد . ونحن والله
لا نبغى غير فائدة واحدة هى : الطعام ومعاشرة الكرام
- وكيف لنا بالسفر ؟

- اليوم ترحل قافلة الى مكة ، لى فيها من يحملنى
ويحملك بغير نفقة ... فهل بنا !



مضى أشعب وبنان من ساعتها الى القافلة . وكان اليوم
يوم جمعة . فبينا هما فى الطريق مرا بمسجد قد ازدحمت
فيه الناس تصلى الجمعة . فتمهل أشعب وحدثه نفسه
بالصلاة . فأخبر زميله ، فاتهره ، وثناه عن رغبته فأصر
أشعب قائلا :

- أريد أن أستعين ببركات الصلاة على وعشاء الفلاة
- اذهب أنت وحدك ، ولئن فانتك القافلة فليس على
لوم

- انما هي ركعة أستودع بها المدينة

ومشى بنان في طريقه . وعرج أشعب على المسجد
ودخل . وكانت الصلاة قد بدئت . ووجد الصف تاما .
فلم يستطع أن يقوم وحده ، فجذب ثوب شيخ أمامه في
الصف ليتأخر فيقوم معه ، فلما تأخر الشيخ ورأى أشعب
الفرج تقدم فقام في موضع الشيخ وترك الشيخ قائما
خلفه ينظر في قفاه ويدعو الله عليه . وكان الامام من
سوء الطالع رجلا مبطاء ثقیل الحركات ، فجعل يقرأ
فاتحة الكتاب بقراءة « حمزة » مدة وهمزة ، ثم انحنى
للركوع بنوع من الخشوع لم يعهده أشعب من قبل ، ثم
رفع رأسه ويده وقال : « سمع الله لمن حمده » وقام حتى
ما شك أشعب أنه قد نام . وحل بأشعب الغم وأيقن بفوات
القافلة ، وضرب الامام بيمينه وأكب لجبينه ثم انكب
لوجهه ، وأشعب يتقل على نار الصبر ويتقلب على جمر
الغيظ ، وليس له الا السكوت والاذعان ، أو الكلام

والقبر ، لما يعلم من خشونة القوم فى ذلك المقام لو أنه قطع الصلاة قبل ختامها . فنزل على حكم الضرورة وقد قنط من الرحل والرحيل . ثم راجعه الأمل فرفع رأسه ينتهز فرصة فلم ير بين الصفوف فرجة . فعاد الى السجود يائسا ، حتى كبر الامام للقعود وقام الى الركعة الثانية فقرأ الفاتحة وسورة القارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة ، وكاد يستنزف أرواح القوم . فلما فرغ من ركعته وأقبل على التشهد ومال الى التحية ، وقال أشعب فى نفسه : « لقد سهل الله المخرج وقرب الفرج » اذا رجل قد قام من بين الناس صائحا : « أيها الناس من كان منكم يحب النبى والصحابة فليعرنى سمعه ساعة »

فلم ير أشعب مناصا من أن يلزم مكانه كما فعل جميع الناس

وصاح الرجل : « أيها الناس ! خليك بى أن لا أقول غير الحق ولا أشهد الا بالصدق . قد جئتكم ببشارة من نبيكم ، ولكنى لا أؤديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوته

فربط هذا القول أشعب بالقيود وشده بالحبال ، فلو تحرك بعدئذ وقام من بين الناس لكان هو ذلك النذل

الجاحد فى نظر الجميع ، ومضى الرجل يقول : « رأيت
فى المنام صلى الله عليه وسلم كالشمس تحت الغمام والبدر
ليل التمام ، يسير والنجوم تتبعه ، ويسحب الذيل والملائكة
ترفعه ، ولقد علمنى دعاء أوصانى أن أعلمه أمته ،
فكتبته على هذه الاوراق بمسك وزعفران ، فمن دفع لى
ثمان القرطاس أعطيته »

فانهالت الدراهم على الرجل حتى حيرته ، ورأى أشعب
ذلك فتعجب من حذق الرجل واحتياله لرزقه ، وجعل
يتأمل فصاحته فى وقاحته ، وربطه الناس بهذه الحيلة
البارعة ، وأخذ المالك الوافر بهذه الوسيلة اليسيرة !

وخرج أشعب من المسجد وهو يفكر فى الأمر ويقول
فى نفسه : « ما كان أحرانا أن نحتال للعيش بمثل هذه
الحيل ، بدلا من انتظار الولاثم والأعراس ! » ، وسار فى
طريقه حتى بلغ مكان القافلة فعلم أنها رحلت بصاحبه .
فعاد خائبا فى غم وجوع لا يدرى أين يذهب ولا كيف
يجد غداه ، وإذا هو برجل من ريف المدينة يسوق
حماره وعلى وجهه أمارات السذاجة ، فقال فى نفسه :
« ظفرنا والله بصيد سمين »

وأقبل على الريفى صائحا : « حياك الله يا أبا زيد !
من أين أقبلت ؟ وأين نزلت ومتى وافيت ؟ هلم الى
بيتى ! »

فوقف الرجل دهشا يقول : « لست بأبى زيد ،
ولكنى أبو عبيد »

فقال أشعب فى صوت المستدرك : « نعم لعن الله
الشیطان وأبعد النسيان ، أنسانيك والله طول العهد ،
كيف حال أبیک ؟ »

فقال الرجل : « لقد نبت الربيع على قبره »
فصاح أشعب : « انا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول
ولا قوة الا بالله العلى العظيم ! »

ومد يده الى صدره يريد أن يمزق قميصه من الجزع ،
فقبض الريفى على يده قائلا : « نشدتك الله لا تمزقه ! »
فأظهر أشعب التجلد والطاعة ، وأبقى على ثوبه ثم
جذب يد الريفى قائلا :

- هلم الى بيتى كى نتغدى ، أو الى السوق لنشتري
شواء ، نعم ... السوق أقرب وطعامها أشهى
ومشى به الى حانوت شواء تتصاعد رائحة دخانه

شهية الى الانوف فتحرك أفواه البطون ، وقال أشعب
لصاحب الحانوت : « افرز لآبى زيد من هذا الشواء ! »
ونظر الى صوانى معروضة وقال : « ثم زن له من
تلك الحلوى ، واختر له من تلك الاطباق . وأنضد عليها
أوراق الرقاق ورش عليها شيئا من السكر وماء الورد
ليأكله أبو زيد هنيئا ! »

فانحنى الشواء بشاطوره على ذلك اللحم الطرى .
وقطع وقدم الى أشعب والريفي . فجلسا وأكلا حتى
استوفيا . فقال أشعب لصاحب الحلوى :

- زن لآبى زيد من اللوزينج رطلين ، فهو أجري
فى الخلق ، وليكن رقيق القشر كثيف الحشو لؤلؤى
الدهن ، يذوب كالصمغ قبل المضغ ، ليأكله أبو زيد
هنيئا

فوزن صاحب الحلوى لهما . وقعد الرجلان وشمرا
حتى استوفياه ، فقال أشعب للريفي : « يا أبا زيد ، ما
أحوجنا الى ماء مشعشع بالثلج يبرد جوفنا بعد هذه
الأكلة النظيفة ! »

فقال الريفي : « صدقت »

فقام أشعب وهو يقول له : « اجلس يا أبا زيد ولا
تبرح حتى نأتيك بسقاء ! ». وخرج أشعب فائثرا بالسلامة
ومعدة مملوءة

ومضى النهار ، وعلم الريفي من ابطاء أشعب أنه لن
يعود ونقد صبره من طول الانتظار ، فقام الى حماره ،
فلمحه صاحب الحانوت فتعلق بثوبه وقال له : « أين ثمن
ما أكلت ؟ »

فقال الريفي : « لقد أكلته ضيفا »
فلكمه صاحب الحانوت لكمة ، وثنى عليها بلطمة
وقال له :

— ضيفا ؟ متى كنا دعوناك ؟ هالك فخذ ...

ونزل عليه الشواء لكما ولطما وهو يقول :

— زن يا أبا الوقاحة عشرين !

وجعل الريفي يصرخ ويلعن ويصيح : « لعن الله ذلك
الشيخ المحتال ، لقد قلت له أنا أبو عبيد ، فيقول لي أنت
أبو زيد ! »



وقال أشعب لصاحب الخانوت : « أفرز لابی زيد من هذا الشواء »

أشعب في مكة

مرت الايام وأشعب لا يسمع خبرا عن بنان . ولا
يجد سبيلا الى لقمة ، فقد عرفه الناس فى المدينة فلم تعد
تنفع الحيلة ولا الوسيلة . ولم تعد تقع عينه على خوان ولا
على قوم أمام طعام . كأنما الناس من لؤمهم قد أصبحوا
يأكلون فى بطون الأرض أو أجواز السماء . ومشى
أشعب غداة ذلك اليوم لا ينتظر شيئا ولا يفكر فى شيء ،
فدهم فى جانب من جوانب الطريق جماعة يتغدون وهم
غرباء لم يعرفوه . فقال لهم :

— سلام عليكم معشر اللثام !

فرفعوا أبصارهم اليه قائلين : « لا والله بل كرام ! »
فثنى رجله فى الحال وجلس بينهم وهو يقول :

— اللهم اجعلهم من الصادقين واجعلنى من الكاذبين !

ثم مد يده فى القصة التى بين أيديهم وهو يقول :

« ماذا تأكلون ؟ »

فأرادوا أن يقفوا تهجمه ، فقالوا فى فتور : « نأكل
سما ! »

فحشا فمه وازدرد وهو يقول :
- الحياة بعدكم حرام !

وجعل يجول فى القصعة كما يجول الفارس فى
الميدان . فلما رأوه قد أغار على أكلهم ، وكاد يحرمهم
زادهم فى غير حشمة ولا حياء . نظر بعضهم الى بعض
ثم التفتوا اليه قائلين :

- أيها الرجل ! هل عرفت منا أحدا ؟ فأشار أشعب
بأصبعه الى الطعام وقال : « عرفت هذا »

فسكتوا عنه ، وقد استظرفوه ، وتبادلوا الحديث ،
فعرف منهم أشعب ، أنهم من أهل مكة ، وقد جاءوا فى
القافلة الاخيرة ، وقال أحدهم ان معه رقعة من رجل
اسمه بنان فى مكة لرجل اسمه أشعب فى المدينة ، فاهتز
أشعب سرورا وكشف لهم عن حقيقته . وتسلم الرقعة .
وقرأها فعلم منها أن صاحبه قد استقر فى أحسن حال .
وقد بارحته أيام العسر والضيق . وله حرفة شريفة يدر
منها المال ، وهو يسأله أن يأتى اليه مع أول قافلة متهيئة

للرحيل ، كى يعاونه فى ذلك العمل ويشاركه فى ذلك
الكسب الحلال ...



قام أشعب من فوره فرحل مع قافلة ذاهبة الى مكة .
ولم يكن معه مال ولا أحمال ، ولم يدر كيف غاب عن
فطنه بنان ، وقد أصبح حسن الحال كما قال : أن يرسل
اليه مع الرقعة بما يقيم أوده حتى الوصول . لعله خشى
أن يأخذ أشعب المال ويكسل عن تجشم الرحيل . ولم
يعدم مثل أشعب الوسيلة ، فقد سار مع القافلة على قدميه
يغنيهم ويضحكهم . وقد كان سيره أول الامر الى جانب
ناقة عليها شيخ وشاب ، فلحظ أن الشاب كثير البكاء ،
فاستعلم فأخبروه أنه عاشق لابنة عمه وقد فرقت بينهما
الاحداث . وأن الشاب اشترك مع ذلك الشيخ فى السفر
والمؤونة وكانا على ضيقة وعسر . فجعلا لهما فى كل
يوم قرصا من الخبز . وكان الشيخ متخلع الاضراس
بطيء الاكل ، فكان الشاب يبطش بالقرص ثم يقعد
يشتكى العشق ، ويتضور الشيخ جوعا ، وكان اسم ذلك

الشباب جعفرًا . فجعل أشعب يغنى فيهما قائلاً :

لقد رابني من جعفر أن جعفرًا
يطيش بقرص الشيخ في آخر الليل
فقلت له : لو مسك الحب لم تبت
سمينا وأنساك الهوى شدة الأكل

فضحكت القافلة وأنست الى أشعب . وحمله معه رجل
من التجار يسافر وحده على جمل ، فلبث أشعب معه
طول الطريق ينزلان ويقومان ، والرجل في كل يوم
يحضر الطعام ويجهزه وأشعب لا يصنع شيئاً . فقال له
الرجل ذات يوم : « قم اليوم فاطبخ »

فقال أشعب : « لا أحسن ذلك »

فطبخ الرجل . ثم قال لأشعب : « قم فاثرد »

فقال أشعب : « والله كسلان »

فثرد الرجل ، ثم قال : « قم فاغرف »

فقال أشعب : « أخشى أن ينقلب على ثيابي »

فغرف الرجل ثم قال لأشعب : « قم الآن فكل »

فنهض أشعب مسرعاً قائلاً : « قد والله استحييت من

كثرة خلافي عليك ! » ، وتقدم الى الاكل فقام فيه مقام
رجلين



وصل أشعب الى مكة وسأل عن بنان ، ف قيل له انه
كان قد استأجر دارا في مكة يجمع فيها بين الرجال
والنساء ويحمل لهم الطعام والشراب . فشكاه الناس الى
والى مكة فنفاه الى عرفات ، فمشى أشعب من ساعته الى
عرفات ، فوجد صاحبه قد أقام فيها منزلا ورأى أمام
المنزل قطيعا من الحمير مرتبطة ، فما رآه بنان داخلا عليه
حتى فتح له ذراعيه وتعانقا ، وأخبره بما هو فيه من
الرخاء واستواء الحال وأنه لا ينقصه لتمام سرور من
يجيئونه غير الغناء والطرب ، وهذا لا يقوم به غير أشعب ،
ولهذا أرسل اليه ، فتأمل أشعب المكان وقال لصديقه :
« أهذا هو العمل الشريف والكسب الحلال ! » فانتهره
بنان وقال له : « أليس هذا أشرف من أن ندعو أنفسنا
الى موائد الغير وشرابهم ؟ انما ندعو الان الناس الى
شرابنا نحن وموائدنا وغنائنا ، فماذا فى ذلك ؟ »

فقال له أشعب :

— أما نفاك والى مكة ؟ فكيف يجيئك الناس ها هنا ؟
فأجاب أشعب :

— الأمر هين . فقد أرسلت الى الناس أقول : « ما يمنعكم من أن تعاودوا ما كنتم فيه ؟ » فقالوا : « وأين بك وأنت فى عرفات ؟ » فقلت لهم : « حمار بدرهم وقد صرتم على الأثر فضلا عن النزهة » . ففعلوا . وما زالوا يفعلون ، وتلك حميرهم بالباب !

استطاب أشعب تلك الحياة الجديدة . لقد عرفت يده نقل الدراهم ، وبطنه الشبع ، وظهره الكساء ، وأصبح الشراب من لزوم عمله . لا يفيق منه الا اليه . وهو يعد شريك بنان فى كل ما ملك حتى فى ذلك الخادم الذى يقوم بخدمتهما

ولم يدر أشعب أين ينفق ماله ، ولم يشأ أن يركب حمارا بالكراء يحمله فى غدواته وروحاته من مكة الى عرفات ، ومن عرفات الى مكة . فذهب الى نخاس بسوق الدواب فقال له :

— أطلب ما شئت من الثمن ، واعطني حمارا يليق بى وأليق به

فقال النخاس وهو ينظر الى بذخ أشعب
- تبغى حمارا عظيم الهيئة سريع الخطوة ؟..
فقال أشعب :

- أبغى حمارا ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير
المشتهر ، اذا خلا له الطريق تدفق ، واذا كثر الزحام
ترفق ، ان أقللت علفه صبر ، وان أكثرته شكر ، واذا
ركبته هام ، وان ركبه غيرى نام

فنظر اليه النخاس محملا مشدوها ثم قال له :
- يا عبد الله ، اصبر ، فان مسخ الله قاضى مكة حمارا
أصبت حاجتك ان شاء الله !

ثم أراه بعد ذلك حمارا حسن المنظر أنيق المظهر
ليس به من الخصال ما طلب أشعب ، ولكن فيه من
الامارات ما يغرى ، فركبه أشعب من ساعته ونقد الرجل
الثمن . ومشى به يتبختر ، مشية لم يعرفها من قبل
لا على قدميه ولا على ظهر دابة . وعاد به الى عرفات .
فلم يخلطه مع الحمير الواقعة بالباب ازدراء لشأنها وتعظيما
لشأنه . فربطه وحده تحت نافذة بنان . ودخل فألفى
مجلس الشراب قائما ، والرجال والنساء مختلطين .

وبنان ليأسه من غيبة أشعب في السوق ، ولما صور له
السكر من الوهم والحيلة قد حل محل أشعب في الغناء .
وإذا القوم يضحجون ، يريدون أن يسكتوه وهو لا يريد
أن يسكت ، وما كادوا يرون أشعب داخلا حتى هملوا
فرحين . وأقبل عليه الرجال وأقبلت النساء ، وارتفعت
الاصوات تقول له :

— أسكت لنا صاحبك !

فأراد أن يسكته فلم يستطع ، وأقبل الناس على بنان
يقولون له :

— لقد حضر أشعب ، فمن أحسن غناء .. أنت أو
أشعب ؟

فقال بنان :

— أنا شيء ، وأشعب شيء ، أنا أغنى بدرهم ، وأسكت
بدينار ، أما أشعب فيغنى بدينار ويسكت بدرهم ، فسكوتى
اذن أغلى من سكوت أشعب ! فوالله ما أسكت حتى تدفعوا
الثلث !

فصاح الناس :

— ندفع والله !

وصاحت النساء تطلب الى أشعب أن يغنى فقال لهن :

— بئس منه كما قضى زميلي

فقلن :

— ندفع والله

فسكت بنان . ونهق الحمار تحت النافذة . فقال
أشعب :

— هذا والله هو وحده الذى طرب لغناء بنان !

ثم شرب رطلين ورفع عقيرته يغنى بصوته الحسن
ويشير الى بنان :

ومغن ان تغنى أورث الندمان هما

أحسن الأقسام حالا فيه من كان أصما

فضحك المجلس وطرب وانهاالت على أشعب آيات
الحمد والاعجاب ..

مرت الايام وشاعت فى مكة أخبار ذلك المنزل فى
عرفات . وأعاد أهل مكة الشكاية الى الوالى أن هذين
القوادين لا يفتران عن هذا الفعل ، حتى فسدت أحداث
مكة . فأرسل الوالى الى بنان وأشعب فأحضروهما وقد
قاما عن العشاء وامتلأ بطناهما بألوان الطعام . وقد شرب

ليبتذ أشعب حتى جعل يقول لمن حضر :

أسقني صرفا حميا تترك الشيخ صيبا

وتريه الغي رشدا وتريه الرشدا غيا

ورأى خادمهما الشرطي مقبلين ، فأسرع يخبرهما
وكانا قد أعدا سردابا يخفيان فيه الناس والحمير اذا وقع
خطب من هذه الخطوب . فبادر الى محو آثار ما كانوا
فيه . وكبس الدار رجال الوالى . فلم يجدوا غير أشعب
وبنان . فقادوهما الى مكة . فذهبا وتركا خادمهما يطلق
الناس اذا لاحت ساعة الامن والسلامة

ودخل الرجال بأشعب على الوالى . فلما رآه قال :

— ليس هذا بنان . من أنت أيها الرجل ؟

فغمز أشعب بعينه وقال : « خادمك وعبدك ! »

ولحظ الوالى من حركاته ما جعله يقول لرجاله :

— هذا الرجل شارب

فقال أشعب : « لا .. أصلحك الله ! »

فقال الوالى : « استنكهوه ! »

فأقبل الرجال على أشعب فشموا رائحة فمه ثم قالوا :

— ان نكته لا تبين عليه

فقال الوالى : « قبيوه ! »

فصاح أشعب : « وان لم أقبى شرابا فمن يضمن لى
عشائى ؟! »

ولم يكذب يثم عبارته ، حتى دخل بقية الرجال بنان .
فما ان رأى الوالى بنان حتى عرفه وصاح به :

— يا عدو الله ! طردتك من مكة فصرت تفسد فى
المشعر الحرام !

فقال بنان : « يكذبون على أصلح الله الأمير »

فأمر الوالى بوضعهما فى الحبس حتى الصباح . وما
ان طلع النهار وجلس الوالى فى مجلسه حتى أمر بأصحاب
الشكاية فأحضروا . فسألهم الدليل فقالوا : « أصلحك
الله ، الدليل على صحة ما نقول أن تأمر بجميع حمير
مكة فترسل بها أمناء الى عرفات ، فيطلقوها فان وقفت
كعادتها على منزله دون المنازل ، فنحن غير كاذبين ولا
مبطلين »

فقال الوالى : « نعم ، ان فى هذا لدليلا وشاهدا عدلا »

وأمر من ساعته بحمير من حمر مكة التي للكراء ،
فأرسلت وأطلقت فإذا هي تصير الى منزل بنان لا تلوى
على شيء ، كأنها به عليمه خيرة . فلما علم الوالى بذلك
قال : « ما بعد هذا شيء . جردوه ! »

فأتى الرجال بنان وجردوه عن ثيابه . فلما نظر الى
السياط ، التفت الى الأمير قائلاً : « لابد أصلحك الله
من ضربى ؟ »

فقال : « نعم يا عدو الله ! »

فقال بنان :

— والله ما فى ذلك شيء هو أشد على نفسى ، من أن
يشمت بنا أهل العراق ويضحكوا منا ، ويقولوا أهل مكة
يجيزون شهادة الحمير !

فضحك الوالى . وتفكر قليلا ثم قال :

— أتحب أن أخلى سبيلك ؟ على شريطة ..

— وما هى حفظك الله وأبقاك ؟

— أن تغادر من ساعتك أنت وصاحبك هذه البلاد

ذهب بنان وأشعب توا الى عرفات ليحملا متاعهما
ويرحلا كما أمر الوالى . فوجدا خادمهما قد سبقهما الى

النية . فوضع الدراهم والملابس وما خف وغلا في صرر .
وتهيأ للهرب . فوثب عليه بنان فضربه ضربا مبرحا .
فقال أشعب :

- ماذا تصنع ؟ لا تضرب العبد كل هذا الضرب فقد
دفعت فيه كما دفعت أنت . وحقى فيه كحقك أنت !
فقال بنان :

- انى أضرب نصيبى منه
فأشار أشعب الى الصرر :
- وهذه ؟

فقال بنان :

- كل شىء يقسم بيننا بالعدل
فقام أشعب الى الخادم فضربه هو أيضا قائلا :
- وأنا أضرب حصتى فيه

فانفلت منهما العبد وكان جلدا نشطا ذكيا ، ورفع
ثيابه وسلح عليهما وقال : « اقسما هذه على قدر الحصص ! »
وولى الاُذبار . وبقيا هما مشغولين يومهما بجمع
ما استطاعا جمعه وبيع ما قدرا على بيعه ، وخرجا من ذلك
النعم آسفين ...

أشعب في الحمام

عاد أشعب وبنان الى المدينة . فدخلها دخول
الظافرين ، خلفهما عبدهما الهارب - وقد راجعاه وأرضياه
- يحمل لهما الضرر والخيرات . وقد تعاهدا على أن يقيما
معا فى منزل واحد لينفقا فيه هذا المال سويا . وذهب
أشعب الى داره أول الأمر . فرأى امرأته وعياله وترك
لهم بعض النفقة . وعرج على الكندى يسأل عن خبره
ويضحك من أطواره . ويرى كيف وقع العودة عليه .
فسأل عنه ف قيل له انه خرج فغير من بكرة الصباح ليقضى
رجلا خمسة دراهم فضلت دينا عليه . وان هذا ما يشغله
منذ أيام طويلة . فهو يخرج من أجل هذا الدين من
أول النهار فلا يرجع الا مع آخره لبعث الشقة وكثرة
المماطلة . فجلس أشعب ينتظره حتى رجع . فما وقع
نظر الكندى على أشعب ببابه حتى امتقع لونه . فابتدره
أشعب صائحا :

- لا تخش شيئا ، بأبى أنت وأمى !

وقص عليه أخبار الرحلة ، وأراه ما هو فيه من النعمة فأشرق وجه الكندى . وجعل ينظر الى ثوب أشعب النظيف معجبا أول الأمر . غير أنه عاد فhez رأسه وقال متفاخرا :

- لا والله . أين هذا من ذلك القميص !

فلم يفتن أشعب وقال :

- أى قميص ؟!

وفجأة تذكر الليلة التى سكر فيها الكندى . فضحك حتى دمعت عيناه . فأراد أن يسره ويهون عليه تلك المصيبة التى ما زال يذكرها ، فدعاه الى طعام وشراب فى ذلك المنزل الذى جعله هو وبنان لمناذمتها وتنعمهما ومضى أشعب فأخبر صديقه وشريكه ليعد وليمة فى ذلك المساء ورأى أشعب أن شعره قد طال وبدنه قد اتسخ من طول السفر

فقال للخادم :

- اختر لنا حماما نظيف البقعة طيب الهواء معتدل الماء ، وحلأقا خفيف اليد حديد الموسيقى قليل الفضول

فقاده الغلام الى ما أراد . ودخل أشعب الحمام ، فلم
يرعه الا رجل قد دخل على أثره وعمد الى قطعة طين
فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه ثم خرج . ودخل
آخر فجعل يدلكه دلكا يكد العظام ويغمزه غمزا يهد
الاوصال . ثم عمد الى رأسه يغسله ويرسل عليه الماء .
واذا الأول قد عاد فرأى الثانى منهمكا فى العمل فلكمه
لكمة كادت تطير أسنانه وقال له :

— يا لكع ، مالك ولهذا الرأس وهو لى ؟

فقام اليه المضروب وعطف عليه بلطمة كادت تضيع
صوابه ، وقال له :

— بل هذا الرأس حقى وملكى وفى يدي

وتلاكما حتى تعباً ، وتجاوزا الاثواب وسارا يتحاكمان
الى صاحب الحمام . فقال له الأول :

— أنا صاحب هذا الرأس . لائى لطخت جبينه
ووضعت عليه الطين

وقال الثانى :

— بل أنا مالكه ، لائى غسلته ودلكت صاحبه

فقال الحمامي :

- اتنوني بالزبون أسأله لائيكما هذا الرأس ؟

فذهب الرجلان الى أشعب وقالا له :

- لنا عندك شهادة ، فقم معنا !

وكان أشعب ما زال موضوعا في مكانه وضعا لم يفهم
مما حدث أمامه شيئا ولا أدرك لهذا الشجار معنى ، فنهض
وسار معهما الى صاحب الحمام . فابتدره الحمامي قائلا :

- يا رجل لا تقل غير الصدق ولا تشهد بغير الحق ،

قل لي : هذا الرأس لائيهما ؟

فوقف أشعب دهشا مشدوها لحظة ثم قال :

- يا عافاك الله ، هذا رأسي أنا ، قد صحبني طول

الطريق من المدينة الى مكة ومن مكة الى عرفات ، وما

شككت أنه لي

فقال له الحمامي متتهرا :

- أسكت يا فضولي !

ثم مال الى أحد الخصمين وقال له :

- يا هذا . الى متى هذه المنافسة بينكما على رأس

صغير الشأن قليل الخطر !

ثم عرج على الحصص الآخر وقال مهونا عليه :
- وأنت يا هذا ! هب أنك لم تر رأس هذا التيس !
فقام أشعب من ذلك المكان خجلا . وارتدى ثيابه على
عجل وانسل من الحمام ، فوجد خادمه المنتظر بالباب
يقول له :

- نعيما ان شاء الله !

فهوى فى الحال بكفه على قفا الخادم :
- أنعم الله عليك بهذا !

أشعب والخلاق

أسرع أشعب فدخل المنزل وأوصى الغلام أن يأتيه
بخلق ، وأن يحذر هذه المرة ، فلا يحضره فضوليا ولا
ثرثارا . فحسبه ما ذهب من الوقت فى غير شيء ، سوى
ما رآه من شجار وما لحقه من سباب !

فانصرف وعاد برجل ، دخل فسلم وما هو الا أن
دارت يده على وجه أشعب حتى قال له :

- جعلت فداك ، هذا وجه لا أعرفه ، فمن أنت ؟

فقال أشعب :

- اسمى أشعب

فقال الحلاق :

- بأبى أنت وأمى ، هذا الاسم لا يجهله أحد فى
المدينة ! ومن أين قدمت ؟ فانى أرى أثر السفر عليك ؟

فقال أشعب :

- من مكة

فقال الحلاق :

- حياك الله ، من أرض النعمة والرفاهة ، وبلد
رسول الله الكريم . لقد حضرت فى شهر رمضان جامعها
وقد أشعلت فيه المصابيح وأقيمت التراويح ...

وجعل يقص قصة طويلة لا آخر لها ولا معنى وأشعب
يصبر نفسه . وفرغ الحلاق من القصة فعاد يسأل :

- وأى شئ أقدمك ؟ أصلحك الله !

فأجاب أشعب :

- أقدمنى الزمن وتقلباته ، ولكن اذا فرغت سأخبرك

بالأمور على وجهها

فقال :

- وتعرفنى بال منازل والسكك التى جئت عليها
فقال أشعب :

- نعم

وكان الخادم واقفا على مقربة منهما . فنظر اليه أشعب
نظرة قاسية . فدنا منه الغلام وهمس فى أذنه معتذرا :
- لن أجد حلاقا يسكت حتى يفرغ !

ومالت الشمس الى الغروب . ولم يفرغ الحلاق من
الكلام ، ولم يفرغ مما جاء له ، وأخيرا قال :
- لو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت قد حلقت
رأسك . فهل ترى أن نبتدىء ؟

فأسرع أشعب قائلا :

- وماذا كنت تصنع فيما مضى من الوقت ؟

ونفض فوئب بعيدا . وما إن استوثق أنه أفلت من يد
الحلاق ومواسيه ، حتى صاح فى الخادم :
- علق هذا الحلاق من العقبين

فهجم عليه الخادم بسواعده القوية وعلقه كما أمر .
فقال له أشعب :

- جعلت فداك ، سألتنى عن المنازل والسكك التى
قدمت عليها ، وأنا مشغول فى ذلك الوقت ، وظننت أنك
مشغول بعملك ، فأنا أقصها عليك الآن ، فاستمع :
خرجنا من مكة فى المساء فنزلنا بثرا ذات نخيل فى ظهيرة
الغد . يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة أسواط . فقال أشعب :

- وركبنا عند المساء فنزلنا عين ماء حولها عشب عند
طلوع النهار . يا غلام ، أوجع !

فضربه الخادم عشرة أخرى . وقال أشعب :

- ثم ركبنا ضحى اليوم وسرنا الى نجع وقد أشرفنا
على الأصيل . يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة ثالثة . وقال أشعب :

- وبعدها ركبنا وسرنا حتى وجدنا ...

فصاح الحلاق مقاطعا :

- يا سيدى ، سألتك بالله الى أين تريد أن تبلغ ؟

فقال أشعب :

- الى المدينة

- لست تبلغها حتى تقتلني

فقال أشعب :

- أتركك على أن لا تعود ؟

فصاح الحلاق :

- والله لا أعود أبدا

فتركه . وكان المساء قد أقبل . وحضر بنان والكندى .
وأبصر الخادم يحل وثاق الحلاق . فسألا فأخبرهما أشعب
الحبر . فقال الكندى :

- وددت أنك بلغت به الى أن تأتي على نفسه !

على الخوان

جلس الجميع يتحادثون ساعة قبل أن يوضع بينهم
الخوان ويقدم الشراب . وحلف أشعب على الحلاق أن
لا يبرح حتى يحضر معهم العشاء . فقد كفاه من التأديب
ما أكله من يد العبد . وأخذ الكندى يجول بنظره في
أنحاء المكان ويعجب بالرياش . ولمحه بنان فقال له
باسما :

- أراك شديد العجب !

فقال الكندى :

- اى والله نعم

ثم أردف سائلا :

- ومتى كان الرحيل ؟ قبل أن أهدي أشعب القميص
بكم يوم ؟

فلم يفتن بنان وقال :

- اى قميص ؟

فابتسم أشعب وتذكر عندئذ أمرا كان يود أن يسأل
الكندى فيه . فأقبل عليه يقول له :

- بالله الا أخبرتنا : انا نراك لأول مرة تصنع شيئا
الفساد فيه ظاهر والفائدة لك فيه غير مرجوة . أخبرنا
عن مضيك كل يوم الى رجل فى آخر السوق لتقتضى
منه خمسة دراهم دينا عليه . . أهو حزم منك ؟ لا .
انما الحزم أن يتشدد الانسان فى غير تضييع

فالتفت الكندى اليه قائلا :

- وما هو وجه التضييع ؟

فقال أشعب :

- وجوه التضييع كثيرة . فواحدة : انا لا نأمن عليك
انتقاض بدنك وقد خلا ما خلا من سنك ، وأن تعتل ،
فتدع التقاضى الكثير بسبب هذا القليل أو تشاغل بالبعيد
عن القريب ، وثانية : انك أن تجهد هذا الجهد فلا بد لك
من أن تزداد فى العشاء ان كنت ممن يتعشى أو تعشى
ان كنت ممن لا يتعشى . وهذا اذا اجتمع كان أكثر من
خمسة دراهم . وبعد فانك تحتاج أن تشق وسط السوق
وعليك ثيابك ، والحمولة تستقبلك ، فمن ههنا نثرة ومن
ههنا جذبة ، فاذا الثوب قد أودى ، ومن ذلك أن نعلك
تنقب وترق ، وساق سراويلك تسخ وتبلى ، ولعلك أن
تعثر فى نعلك فتقدها قدا ، ولعلك تهترتها هرتا من كثرة
الذهاب والاياب فى سبيل هذا الدين الزهيد . منذ متى
وأنت تذهب للمطالبة والاقتضاء ؟

فقال الكندى :

- منذ يومين من تاريخ الليلة التى أهديت فيها لك
القميص

فأخفى أشعب ابتسامة ومضى يقول :

- مضى اذن وقت طويل وأنت على هذه المشقة تتكبد

كل ما ذكرنا لك من الحسائر ، ولا تجنى اذا جنيت الا
خمسة دراهم . ولما كنا نثق دائما بحكمتك فى كل
تصرفاتك . فقد أعيتنا والله هذه المشكلة . وأحيينا أن
نسألك فيها

فتخضع الكندى وقال :

— أما ما ذكرتم من انتفاض البدن ، فان الذى أخاف
على بدنى منه هو الدعة وقلة الحركة ، وهل رأيتم أصح
أبدانا من الحمالين والطوافين . ولربما أقمت فى المنزل
بعض الأمر فأكثر الصعود والنزول خوفا من قلة الحركة .
وأما التشاغل بالبعيد عن القريب فأنا لا أعرض للبعيد
حتى أفرغ من القريب ، وأما ما ذكرتم من الزيادة فى
الطعام فقد أيقنت نفسى واطمأن قلبى على أنه ليس لنفسى
عندى الا مالها ، وانها ان حاسبتنى أيام التعب حاسبتها
أيام الراحة . وأما ما ذكرتم من تلقى الحمولة ومن مزاحمة
أهل السوق ومن النتر والجذب فأنا أقطع عرض السوق
من قبل أن يقوم أهل السوق لصلاتهم، ثم يكون رجوعى
على ظهر السوق ، وأما ما ذكرتم من شأن النعل
والسراويل فأنى من لدن خروجى من منزلى الى أن

أقرب من باب صاحبي فانما نعلي في يدي وسراويلي في
كمي ، فاذا صرت اليه لبستهما ، فاذا خرجت من عنده
خلعتهما، فهما في ذلك اليوم أودع أبدانا وأحسن حالا.
بقي الآن لكم مما ذكرتم شيء؟؟

فقالوا جميعا في عجلة :

— لا

فأردف الكندي باسم :

— ههنا واحدة تقي بجميع ما ذكرتم

فقالوا جميعا في لهفة :

— ما هي ؟

فقال الكندي :

— اذا علم المدين القريب ومن لى عليه ألوف الدنانير
شدة مطالبتي للمدين البعيد ومن ليس لى عليه الا الدراهم،
أتى بحقي كاملا ولم يطمع نفسه فى مالى . فهذا تدبير
يجمع لى الى رجوع مالى طول راحة بدننى وليس من
الحكمة أن أدع شيئا من دين يطمع فى فضلة ما يبقى على
الغرماء

وسكت . فقالوا بأجمعهم فى صيحة اعجاب :

— لا والله لا سألتك عن مشكلة أبدا

وجاء وقت الطعام . ووضع الغلام الخوان ، وقدم
« مضيرة » من لحم الجدى واللبن الحامض والتوابل
والأبزار ، تشتى على كرم أشعب وبنان وتشهد لهما
بالسعة والرخاء ، فى قصعة عظيمة يزل عنها الطرف بهاء
ورواء ، فما أخذت من المائدة مكانها ، حتى قام الحلاق
على قدميه ساخطا لاعنا ، يسب آكلها وطابخها ، فظنه
الحاضرون يمزح ، فإذا هو جاد فى الكلام وإذا هو يتنحى
بعيدا تنحى السليم عن الأجرى ، فراهم أمرها وخافوا
أن يمدوا اليها يدا ، فرفعوها فارتفعت معها قلوبهم وسافرت
خلفها عيونهم . وتحلب لها فم الكندى وتلمظت لها شفتاه ،
ولكنه أذعن على مضض ، وأقبل كما أقبل الآخرون على
الحلاق يسألونه عن أمرها فتنهد وقال :

— قصتى معها أطول من مصيبتى فيها !

وسكت ، فصاحوا به :

— تكلم !

فتردد ثم قال :

- أخاف لو حدثتكم بها ألا آمن من غضبكم واضاعة وقتكم

فزاد بذلك رغبتهم فى الاستطلاع فقالوا له جميعا :
- تحدث

فجلس وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال :

- منذ سنوات ثلاث دعانى حلاق من اخوانى الحلاقين ،
ترك الحرفة بعد أن أثرى وجمع الاموال ، الى أكلة
« مضيرة » . ولزمنى ملازمة الظل الى أن تركت حانوتى
وزبائنى وأجبتة اليها ، وقمنا . فجعل طول الطريق يثنى
على زوجته ويفديها بمهجته ويصف حذقها فى صناعة
المضيرة وتأنقها فى طبخها ، ويقول :

- يا صاحبى لو رأيتها والخرقة فى وسطها وهى تدور
فى المطبخ بين القدور تنفث بقمها النار وتدق بيديها
الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبر فى ذلك الوجه
الجميل ، لرأيت منظرا تحار فيه العيون . وأنا أعشقها
لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من
حليته ، ولاسيما اذا كانت من طيبته ، وهى ابنة عمى
لح . مدينتها مدينتى وأرومتها أرومتى . ولكنها أوسع

منى صدرا ، وأحسن خلقا

ومضى يحدثنى بصفات زوجته حتى انتهينا الى الجهة
التي يقيم فيها . فقال :

- يا صاحبي ترى هذه الجهة هى أشرف موقع بالمدينة ،
يتنافس الأخیار فى نزولها ولا يقطنها غير كل عظیم
وانما المرء بالجار . ودارى فى وسطها كالنقطة فى الدائرة
انظر الى دارى وقل لى كم تقدر ثمنها . قله تخمینا
قلت :

- الكثير

فقال :

- يا سبحان الله ! تقول الكثير فقط ؟

وتنهى ثم قال :

- سبحان من يعلم الاشیاء !

وانتهينا الى باب داره فقال :

- كم تقدر يا صاحبي ما أنفقت على هذا الباب ؟ أنفقت
والله عليه فوق الطاقة ، كيف ترى صنعه وشكله ؟ أرايت
بالله نظيره ؟ انظر الى دقائق الصنعة فيه ، وتأمل حسن

تعريجه فكأنما خط بالبركار ، ثم هذه الحلقة فيه لقد
اشتريتها في سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة
دنانير . وكم فيها من النحاس يا صاحبي ! فيها ستة
أرطال ! بالله دورها ثم انقرها وأبصرها

وقرعنا الباب ودخلنا الدهليز . فقال :

— عمرك الله يا دار ولا خربك يا جدار . تأمل بالله
المعارض ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلني كيف
حصلت عليها ، وكم من حيلة احتلت لها . فلقد كان لي
جار يكنى أبا سليمان ، يسكن هذه الدار ، وله من المال
ما لا يسعه الحزن . فمات رحمه الله وخلف خلفا أتلف
المال بين الحمر والزمر ، وخشيت أن تذهب الدار فيما
ذهب . ويفوتني شراؤها فأتقطع عليها حشرات إلى يوم
الممات ، فاحتلت حتى أقرضت صاحب الدار ما لا احتاج
إليه ، وتغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق
فسألته أن يجعل داره رهينة لدي ، ففعل . ثم صبرت
عليه إلى أن أفلس وآلت إلى الدار بثمان بخس . وأنا
بحمد الله محظوظ . وحسبك يا صاحبي أنني كنت منذ
ليال نائما في البيت مع من فيه إذ قرع علينا الباب .

فقلت : من الطارق ؟ .. فإذا امرأة معها عقد لؤلؤ تعرضه
للبيع فأخذته منها اخذة خلس واشتريته بثمان زهيد
وسيكون له ربح وافر بعون الله تعالى . وانما حدثتك
بهذا الحديث لتعلم سعادة حظي . والسعادة تنبسط الماء من
الحجارة . الله أكبر ، لا ينبئك أصدق من نفسك . ثم
انى اشتريت هذا الحصى فى المنادة وقد أخرج من دور
آل ثراء ، وكنت أطلب مثله منذ زمن طويل فلا أجد .
تأمل بالله دقة ولينه وصنعة ولونه . وان كنت سمعت
بأبى عمران الحصىرى ، فهو عمله وله ابن يخلفه الآن
فى حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر الا عنده ، فبحياتى
لا اشتريت الحصر الا من دكانه . فالمؤمن ناصح لاخوانه
ونعود الى حديث المضيرة فقد حان وقت الظهر . يا غلام
الطست والماء

فقلت :

- الله أكبر ، ربما قرب الفرج

وتقدم خادمه . فقال :

- ترى هذا الغلام ؟ انه رومى الاصل ، عراقى

النشء . تقدم يا غلام ، واحسر عن رأسك ، وانض عن ذراعك ، وأقبل وأدبر

ف فعل الخادم ذلك . وقال صاحب الدار :

— بالله سلني من اشتراه ؟ اشتراه والله أبو معن .

النحاس . يا غلام ضع الطست وهات الأبريق

فوضعه الغلام وأخذه المضيف وقلبه بين يديه وأدار فيه النظر ثم نقره وقال :

— انظر الى هذا النحاس الاصفر كأنه قطعة من الذهب ،

نحاس الشام وصنعة العراق . تأمل حسنه وسلني متى

اشتريته ؟ اشتريته والله عام المجاعة . يا غلام . . الأبريق !

فقدمه . وأخذه رب البيت فقلبه بين يديه وقال :

— أنبوه منه ، لا يصلح هذا الأبريق الا لهذا الطست ،

يا غلام أرسل الماء ، فقد حان وقت الطعام ! بالله ترى هذا

الماء ما أصفاه ، أزرق كعين السنور . وكأنه لسان الشمعة

في صفاء الدمعة . وهذا المنديل سلني عن قصته . فهو

نسج جرجان ، وقع الى فاشتريته . فاتخذت امرأتي

بعضه سراويل واتخذت بعضه منديلا . دخل في

سراويلها عشرون ذراعا . وانتزعت انتزاعا من يدها هذا

القدر وأسلمته الى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه .
فادخرته للظراف من الاضياف أمثالك . يا غلام ،
الخوان والقصاع والطعام ، فقد كثر الكلام
فأتى العبد بالخوان ، وقلبه صاحب البيت ، ونقره ،
وعججه بأسنانه ، وقال :

— عمر الله بغداد فما أجود متاعها . تأمل بالله هذا
الخوان وانظر الى خفة وزنه وصلابة عوده وحسن شكله
فقلت له :

— هذا الشكل ، فمتى الاكل ؟

فقال :

— الآن . عجل يا غلام بالاكل ، لكن الخوان قوائمه

منه ...

فقنطت وقلت فى نفسى :

— قد بقى الحبز وآلاته وصفاته والحنطة من أين
اشتراها وكيف اكرى لها حمالا وفى أى رحي طحن
وكيف عججن وخبز ، وبقى الحطب ومتى جلب وكيف
صفف وجفف . وبقى الحجاز ووصفه والدقيق والخمير
وشرحه ، بقى البقل وكيف قطف ونظف ، وبقيت

المضيرة كيف اشترى لحمها ووفى شحمها ونصب قدرها
ودقت أبنزارها حتى أجيد طبخها وعقد مرقها ، وهذا
خطب يظم . فقامت

فقال : « أين تريد يا صاحبي ؟ »

فقلت : « حاجة أقضيها »

فقال :

- تريد كنيفا أحسن من مصيف الأمير ويزرى
بمقصورة الوزير ، قد سطح سقفه وفرشت أرضه بالمرمر ،
يمشى على أرضه الذباب فيزلق ، وعليه باب من ساج
وعاج ، مزدوجين أجمل ازدواج ، يتمنى الضيف أن
يأكل فيه ؟

فقلت له : « كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف
في الحساب » . وخرجت من الدار وجعلت أعدو ، وهو
يتبعنى ويصيح بى :

- يا أبا الفرج ... المضيرة !

وظن الصبيان فى الطريق أن المضيرة لقب لى ، فصاحوا
صياحه فضجرت ورميت أحدهم بحجر ، فأصاب الحجر
عمامة رجل عابر . وغاص فى هامته . فأخذت من صفع



« وجعلت أعدو ، وهو يتبعني ويصيح بي : يا أبا الفرج ... المصيرة ! »

الناس بما طاب وخبث. وضربت والله حتى نسيت اسمي .
ثم حشرت الى الحبس فأقمت عامين فى ذلك النحس .
وخرجت فنذرت أن لا آكل مضيرة طول حياتى . فهل
أنا فى ذا يا أسيادى واخوانى ظالم ؟! »



وسكت الحلاق . ونظر الى الجالسين يمنا ويسرة
فوجدهم يتفخون وتلمظون لا من الجوع ، بل من
الغيظ . ولم يجدوا كلاما يقولونه له

ولم ير أشعب جوابا يجيب به غير الاشارة الى العبد
والصياح فيه قائلا : « علق هذا الحلاق من العقبين ، الى
أن تفرغ من العشاء ! »

وأرجعوا « المضيرة » ، فعادت اليهم باردة منكمشة
كالعجوز الحيزبون ، فأكلوها وقد ذهب روائها ومضت
لذتها فجعل الكندى يمضغ ويقول لأشعب :

— ألم أقل لك : وددت أنك بلغت بهذا الحلاق الى أن
تأتى على نفسه ؟

حيلة شيطانية

لب أشعب وبنان على هذه الحال أياما ينفقان مما
عندهما على طيب الطعام وجيد الشراب ، الى أن أوشتك
ما جمعا أن ينضب ، ولمحا شبح الفاقة والجوع يقترب ،
فحدثتهما النفس أن يصنعا ههنا ما صنعاه في عرفات .
ولكن على نسق آخر ، خوفا من سوء العاقبة . فبعث
أشعب الى الجارية « رشا » فحضرت . وأعد هو وبنان
منزلا في زقاق العطارين يشرف على السوق . وأوصيا
الجارية أن تخطر بقدها المائس أمام المسجد اذا اجتمع
الناس لصلاة العصر . فمضت وعلى وجهها خمار أسود
تزهر من تحته عيناها كأنهما النجوم . فما كادت تسير
خطوات حتى سمعت خلفها من يهمس في أذنها :
قال للمليحة في الحمار الأسود :

ماذا فعلت بزاهد متعبد ؟

قد كان شمر للصلاة ثيابه

حتى خطرت له بباب المسجد

ردى عليه صلاته وصيامه
لا تقتليه ، بحق دين محمد !

فالتفت ، فرأت رجلا ليس من أهل البلد نظيف
الهيئة ، وقور الطلعة يحد إليها النظر . فقالت له :
- اتبعنى

فقال لها : « ان شريطتى الحلال »
فقال له :

- قبحك الله ، ومن يريدك على حرام ؟

فخجل الرجل . وغلبته نفسه على رأيه فتبعها .
ومشيا حتى دخلا الزقاق وبلغا المنزل . وصعدت الجارية
درجة وقالت للرجل :

- اصعد

فصعد . فقالت له :

- ان لى وجهها أحسن من العافية ، مع صوت كصوت
« ابن سريج » وترنم « معبد » وتيه « ابن عائشة » أجمع
لك هذا كله فى بدن واحد بأشقر سليم
فقال لها :

- وما أشقر سليم ؟

فقال :

- بدينار واحد ، يومك وليلتك . فاذا أقمت جعلت
الدينار صداقا وتزويجا صحيحا

فقال الرجل :

- لك ذلك اذا جمع لى ما ذكرت

فأجلسته فى صدر الدار وخلعت خمارها . ورأى
الرجل جمالها . فذهب عقله . وقامت الجارية فقال لها :

- الى أين جعلت فذاك ؟

- ألبس وأتھيا ..

فصاح الرجل :

- بالله لا تمسى غمرا ولا طيبا ، فحسبك بدلالك

وعطرك ...

فابتسمت له ابتسامة أجهزت عليه . وذهبت . وجاء
الغلام ، فحيا الرجل أجمل تحية ، وأسر له فى أذنه :

- أخبرتك شريطتها ؟

فقال الرجل :

- لا والله . ما شريطتها ؟

فقال الخادم :

- لعلها نسيت تخبرك . هي والله أفتك من « عمرو
ابن معديكرب » وأشجع من « ربيعة بن مكرم » ولست
بواصل اليها حتى تسكر وتغلب على عقلها ، فإذا بلغت
ذلك الحال ففيها مطعم

فقال الرجل :

- ما أهون ذلك وأسهله !

فأردف الخادم :

- ثم شيء آخر

- ما هو ؟

- اعلم أنك لن تصل اليها حتى تتجرد لها وتترك

مجردا مقبلا مدبرا

فقال الرجل :

- وهذا أيضا أفعله

وتركه الغلام ومضى . وأقبلت الجارية تموج ظرفا

وتميس لطفًا فقالت :

— هلم دينارك !

فأخرج الرجل دينارا نبذه اليها فصفقت فأجابها العبد .
فقال له :

— قل لأبى الحسن وأبى الحسين هلمنا الساعة !

ومضى قليل . فاذا شيخان خاضبان نيلان ، هما أشعب
وبنان ، قد أقبلا فصعدا . فقصت الجارية عليهما القصة .
وغمرت لهما بعينها غمزة خفيفة لم يلحظها الرجل .
فقام أحدهما فخطب وأجاب الآخر . ودعا الرجل
فأقر بالتزويج وأقرت الجارية . ودعا الشاهدان بالبركة ،
ثم نهضا وخرجا واستحيى الرجل أن يحمل المرأة شيئا
من المؤونة فأخرج دينارا آخر دفعه اليها وقال :

— اجعلى هذا لطيبك

فقال له :

— يا أخى ، لست ممن يمس طيبا لرجل ، انما أتطيب

لنفسى اذا خلوت

فقال لها :

— فاجعله اذن لعشائنا الليلة

قالت :

- أما هذا فنعم

ونہضت فأمرت باصلاح ما يحتاج اليه . ثم عادت
وأقبل المساء ، فدعت بالخوان والنبيذ . فتعشيا وشربا .
وأمسكت بالعود واندفعت تغنى :

راحوا يصيدون الطباء واننى
لاأرى تصيدها على حراما
أعزز على بأن أروع شبيها
أو أن تذوق على يدى حماما
فكاد الرجل يجن سرورا وطربا . وقال لها :
- جعلت فداك ، من يغنى هذا ؟

قالت :

- اشترك فيه جماعة ، هو لمبعد ، وتغنى به ابن سريج
وابن عائشة

وجعل الرجل يحتال لتدنو منه فتأبى عليه . ثم غنت
بصوت لم يفهمه للشقاء الذى كتب عليه :
كأنى بالمجرد قد علتہ

نعال القوم أو خشب السوارى

فقال لها :

- جعلت فداك ، ما أفهم هذا البيت ، ولا أحسبه مما
يتغنى به !

قالت :

- أنا أول من تغنى به

فقال :

- انما هو بيت عابر لا ثانى له ؟

قالت :

- معه آخر ليس هذا وقته . هو آخر ما أتغنى به

فسكت الرجل . وجعل لا ينازعها فى شيء اجلالا
لها ، الى أن أذنت العشاء ، فوضعت عودها . فقام فصى
العشاء ، وما يدري كم صلى عجلة وشوقا . وفرغ من
صلاته فأقبل عليها يقول :

- تأذنين جعلت فداك فى الدنو منك ؟

قالت :

- تجرد !

وأشارت الى ثيابها كأنها تريد أن تتجرد، فكاد الرجل

يشق ثيابه عجلة للخروج منها . فتجرد ، وقام بين يديها . فقالت له :

— امض الى زاوية البيت ، وأقبل وأدبر ، حتى أراك مقبلا ومدبرا !

واذا فى زاوية البيت حصير فى الغرفة على الطريق فخطر الرجل عليه . واذا تحته خرق الى السوق . واذا الرجل يجد نفسه فى السوق مجردا عاريا كما ولدته أمه واذا الشيخان الشاهدان « أشعب وبنان » قد أعدا نعالهما على قفاه ، واستعانا بأهل السوق . فما أبقوا فيه عظما صحيحا . وبينما الرجل يضرب بنعال مخصوفة وأيد مشدودة ، اذا صوت تغنى به الجارية من فوق البيت: ولو علم المجرّد ما أردنا

لحاربنا المجرّد بالصحارى

فقال الرجل فى نفسه :

— هذا والله وقت هذا البيت !



أمعن أشعب وبنان فى هذا السيل بمثل هذه الاساليب،

حتى ضجت الناس وعمت الشكوى . وبلغ الأمر والى
المدينة وكان شديد الورع ، صارم الخلق ، عبوس الوجه .
فأرسل فى طلب هذين المفسدين ، وأمر بهما للفور
فجردا من ثيابهما وضربا ثلاثين سوطا . وأمر بأموالهما
الحرام فمضت الى بيت المال

وتحمل أشعب وبنان الضرب . ولكنهما لم يتحملا
كارثة ذهاب المال . فصاح أشعب يستأذن على الوالى
فأذن له . فبكى بين يديه وتباكى وقال :

— أصلحك الله ! أنجرد من ثيابنا ومن مالنا فى يوم
واحد ؟

فقال له الوالى :

— يا عدو الله ! لقد كنتما تجردان الناس من هذا وذاك
فى ليلة واحدة

ورأى أشعب أن لا حيلة له مع هذا الوالى الا أن
يضحكه ، فلعله ان ضحك عفا . فجعل يقص عليه طريف
النوادر والوالى فى اطرافه وتقطيعه وعبوسه لا يعبر
وجهه خيال ابتسامة . وسكت أشعب قانطا

فرفع الوالى رأسه وقال له :

— لو أنك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر لكان
أولى بك

فقال أشعب : « قد فعلت »

فقال له الوالى : « أسمعنى ما حفظت من الحديث »
فتحنح أشعب ثم قال :

— حدثنى نافع ، عن ابن عمر ، عن النبى صلى الله
عليه وسلم قال :

— من كان فيه خصلتان كتب عند الله خالصا مخلصا
فقال الوالى :

— هذا حديث حسن ، فما هاتان الخصلتان ؟

فحار أشعب وتفكر لحظة ثم قال :

— نسى نافع واحدة

فقال الوالى : « والاخرى ؟ »

فقال أشعب :

— والاخرى .. نسيته أنا

فلم يجب الوالى . ولم يزد على أن أمر بأشعب فضرب
ثلاثين أخرى ...

في العرس

جعل أشعب وبنان يطوفان فى الاسواق متجردين من
مالهما وقد أعياهما الجوع وضاعت بهما الحياة . ولم يبق
لهما مما سلف ، غير ذكرى تعاود أشعب فى كل ليلة .
فيرفع عقيرته صائحا :

شربنا كؤوس السعد حتى كأننا

ملوك لهم فى كل ناحية وفر
فلما اعتلت شمس النهار رأيتنا
تخلى الغنى عنا وعادنا الفقـر

وأتعبتهما كثرة المشى ، فقال بنان :

— مالنا نمشى فى غير حاجة ؟

فقال أشعب :

— صدقت . والله لقد أنسانا العز وصايا أساتذة التطفيل

رحمهم الله ، لقد جاء فى بعض نصائحهم الذهبية :
« لا تمش الى موضع لا تمضغ فيه شيئا »

فقال بنان :

- لو عرفنا موضع المضغ ...

فأجاب أشعب :

- لمشيئا اليه دهرا

وتنهذ الرجلان ، ومضيا في السير . وإذا الفرج يلوح
لهما عن كتب في هيئة عرس في طرف المدينة ، قد نمت
أنواره عن عظم شأنه فصاحا معا صيحة واحدة . وركضا
اليه . ولكنهما وجدا دونهما بابا قد ارتج وبوابا وقاحا
غليظ الطبع يسب من لا يعرف من القادمين ، ويدفع بيده
في صدورهم فعلما أن لا سبيل الى الدخول الا بالحيلة .
فانصرف كل منهما يدبر لنفسه أمرا

وانطلق أشعب من ساعته يسأل عن صاحب العرس
ان كان له ولد غائب أو شريك في سفر ، فعلم أن له
ولدا في اليمن هو أخ للعروس فأخذ في الحال ورقة
بيضاء فطواها وختمها وليس في بطنها شيء وجعل العنوان
« من الأخ الى العروس » ثم أقبل متدللا . فقعقع الباب
قعقعة شديدة ، فقال له البواب :

- من أنت ؟

فقال أشعب :

- أنا رسول من عند أخى العروس
ففتح له الباب . وتلقاه صاحب البيت فرحا قائلا له :
- كيف فارقت ولدى ؟

فقال أشعب :

- بأحسن حال ، وما أقدر أن أكلمك من الجوع !
فأمر صاحب العرس بالطعام فقدم الى أشعب ، فجعل
يأكل . ولم يطق صاحب الدار انتظارا فقال :
- أما معك رسالة ؟

فقال أشعب :

- نعم
ودفع اليه بالورقة فأخذها الرجل فوجد خاتمها طريا
فقال :

- أرى الطين طريا ؟

فأجاب أشعب وفمه منتفخ بالطعام :

- نعم ، وأعجب من هذا أنه ليس فى بطن الرسالة
ولا حرف واحد لأن ولدك من العجلة لم يكتب فيه شيئا

فنظر اليه صاحب العرس شزرا وقال له :

- أطفيلي أنت ؟

فأجاب أشعب وهو يمضغ :

- نعم ، أصلحك الله !

فقال الرجل :

- كل ، لا هناك الله !



أما بنان فقد حار ماذا يصنع للدخول . ثم تذكر أن
فى يده خاتما بقى له من أيام العز . فذهب من فوره الى
بقال فرهنه عنده على عشرة أقداح وجاء الى باب العرس
يصيح :

- يا بواب افتح لى !

- من أنت ؟

- أراك لا تعرفنى . أنا الذى بعثونى أشتري لهم

الأقداح

ففتح له البواب . فدخل بنان فأكل هو أيضا وشرب

مع القوم ، حتى فرغ فقام وأخذ الاقداح وخرج فردها
على البقال واسترد خاتمه



لم تكن الحيلة تنقص أشعب وبنان انما الذى كان
ينقصهما هو العلم بموضع الولايم والاعراس فان دون
ذلك البحث الطويل والجهد الكثير ولم يفتح الله عليهما
بحل لهذه المعضلة. الى أن خطر على بال بنان يوما خاطر
فقال لصاحبه :

- لا يعرف مكان الولايم والاعراس غير غلمان
الازقة والطرق . فانك لتراهم منتشرين فى كل مكان،
ولهم علم بكل شأن . ولعل من بين عيالك من تشرّد
مثلهم . فأوص الاشد من أولادك أن يأتينا بالاخبار

وكان الحق فيما قال ، اذ لم يمض يوم حتى جاء ابن
أشعب يجرى، فأخبرهما أنه مر بباب قوم عندهم وليمة .
فأسرعوا ثلاثتهم الى تلك الدار ودخلوا . واذا صاحب
البيت قد وضع سلما ، فكلما رأى شخصا لا يعرفه قال
له : « اصعد يا أبى » . فصعد بنان وأشعب وابنه ، فوجدوا
أنفسهم فى غرفة مفروشة . وتوالى الصعود الى هذه الغرفة

حتى وافى فيها ثلاثة عشر طفيليا . ثم رفع السلم ،
ووضعت الموائد فى أسفل الدار . وبقي أشعب ومن
معه فى العلو ينظرون متحيرين . فقال بعضهم :

— ما مر بنا مثل هذا قط

فنظر أشعب الى الحاضرين مليا وقال :

— يا فتيان ما صناعتكم ؟

فقالوا :

— الطفيلية

فقال لهم :

— ما عندكم فى هذا الأمر الذى وقعنا فيه ؟

فأجابوا :

— ما عندنا فيه حيلة !

فقال لهم :

— واذا احتلت لكم حتى تأكلوا وتنزلوا ، تقرون لى

أنى أعلمكم بالتطفيل ؟

فنظروا اليه وقالوا :

— ومن تكون أنت بالله ؟

فقال :

— أنا أشعب !

فقالوا للفور :

— قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا

فقام أشعب ، وأطل على صاحب الدار وضيوفه

يأكلون ، فصاح به :

— يا صاحب البيت !

فرفع الرجل رأسه قائلاً :

— مالك ؟

فقال له أشعب :

— أيهما أحب إليك ، تصعد إلينا بخوان كبير نأكل

وننزل ، أو أرمى بنفسى رأسيا من هذا العلو فيخرج من

دارك قتيل ويصير عرسك مأتما ؟؟

ثم جعل أشعب يجرس راويله ، كأنه يريد أن يعدو

ويرمى بنفسه . فجعل صاحب الدار يقول :

— اصبر ، ويلك ، لا تفعل !

ثم أصدد اليهم خوانا ، انقضوا عليه انقضا جوارح
الطير ...

وجعل ابن أشعب يأكل ثم يشرب ثم يأكل . حتى لم
يبق شيء يؤكل فقاموا . وعند ذاك ... انتحى أشعب
بابنه ناحية ولطمه هامسا :

- لو جعلت مكان كأس الماء الذي شربته لقيمت ..
فأجاب الابن من الفور :

- ان كأس الماء يوسع محلا للقم

فتأمل أشعب كلام ابنه لحظة ، ثم صفعة ثانية وقال :
- لم لم تنبهني الى ذلك قبل جلوسنا الى الخوان ؟ !



منذ ذلك اليوم جعل نفر من أولئك الطفيلين الثلاثة
عشر يختلفون الى أشعب ، ويجلسون حوله في طرف
من أطراف السوق ، يستمعون الى حديثه ويتلقون
نصحه . ولزمه واحد من هؤلاء ملازمة الظل . وجعل
أحيانا يحمل الى أشعب بعض الطعام ويتلطف له ويتراضاه
ليأخذ عنه بعض أساليب تلك الصناعة ، وكان يلح عليه

الحاحا ينم عن شدة تعلقه بالتطفيل ، وجاء هذا التلميذ الى
أستاذه ذلك المساء بطبق فيه تمر وقعد بين يديه كما يقعد
كل يوم قائلًا له :

— انصحنى !

فوضع أشعب الطبق فى حجره وطفق يأكل .. ثم
تنحنج وقال :

— اذا دخلت عرسا ، فلا تتلفت تلفت المريب ، وتخير
المجالس ، وان كان العرس كثير الزحام فلتمض ، ولا
تنظر فى عيون الناس ، ليظن أهل المرأة ، أنك من أهل
الرجل ، ويظن أهل الرجل أنك من أهل المرأة ، فان
كان البواب غليظا وقاحا فتبدأ به وتأمره وتنهاه من غير
أن تعنف عليه ولكن بين النصيحة والادلال ...

وسكت أشعب واشتغل بالتمر، فقال التلميذ : زدنى !
فقال :

— اذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قط ،
وتزود منه زاد من لا يراه أبدا

— زدنى !

— واذا دعيت الى وليمة ان شاء الله ، فاياك ثم اياك أن

تأخر الى آخر الوقت ، بل استخر الله وكن من السابق
وأول من يوافي ، واعلم أنه ليس يجيء في أول الاوقات
الا جلة الناس وسراتهم ، فعودك مع مثل هؤلاء فائدة ،
وأنت معهم آمن مطمئن مسرور ، تسمع كل حديث
حسن وخبر ظريف ، وأنت ريح البدن واسع الموضع
طيب المكان ، فالزم هذه الطبقة لا يزايل سوادك بياضهم
فتهلك ، فهؤلاء هم الذين يعرفون حقك ويكرمونك
ويجلونك ويحلقون بحياتك وتعرف السرور في
وجوههم ، فصلوات الله على هؤلاء وعلى من ولدهم !..
وقعودك على أول مائدة فيه خصال كثيرة محمودة ، اعلم
يا مغفل أنك أول من يغسل يده ، والخوان بين يديك ،
وأول القنية أنت تشربه ، والبقل الجيد يوضع قدامك ،
وأول من يتبخر أنت . ثم انك تأكل رؤوس القدور ،
وكل شيء كثير ، والقدور ملأى ، والماء بارد ، والحجاز
نشط ورب المنزل فرح مسرور ، وكل شيء من أمرك
مستور ، أما اذا تأخرت أو تكاسلت الى آخر الوقت فقد
عطبت وهلكت . فانك تصادف الطعام باردا وهو فضلات
القدور

والرقاق بقايا عجيين، فقد استعملوا الجيد، والماء سخنا ،
وصاحب الوليمة ضجرا متبرما . ذلك أنه لا يقعد على
آخر مائدة الا ضعفى الجيران ومساكين المكان والقوام .
فاذا قال لهم صاحب الدار : « قوموا سارعوا الى الخوان »
نهضوا مزدحمين فانبسطوا فى ميدان المضغ ورفعوا قناع
الحشمة وألصقوا الاكتاف بالاكتاف كأنهم بنيان مرصوص ،
يأكلون ميمنة وميسرة ، وتدور أيديهم على الخوان شرقيا
وغربيا وتسمع للقم فى حلوقهم معمة . فان قدم لهم
جداء وحملان فانما يقدم الجدى أضلاعا بلا لحم ، فوّه
جلد وحوله « خس » و « هندبا » كأنه كوخ ناطور قد
وقع خشبه وبقي القصب قائما . فماذا يكون حال من
يأكل مع هؤلاء ؟ انه يخرج من العرس وما معه من
العرس الا شم الطعام وتمشيش العظام ...

وسكت أشعب . فقال صاحبه :

- زدنى

فقال أشعب :

- واذا قمت من المائدة وقد تغديت ، فاقعد فى وسط
الدار يضربك الهواء ، وادع بالشراب ، فان أتوك بنبيذ

فهو أحب الى، رطلا أو رطلين، ولا تصب فيه ماء . وان
 حلفوا عليك فأدخلوك البيت فلا تقعد في الصدر فان
 القعود في الصدر قعود مغن أو مخرف . وان كان في
 البيت فأكهة كثيرة فاجذب منها اليك ، اذ لا تأمن أن
 تذهب وتبقى أنت بلا شيء . ولا تكن أنت الساقى . وكن
 ذنبا ولا تكن رأسا . وان كان في المجلس مغنية أو جارية
 حسنة الوجه فاتق الله في نفسك ولا تولع بواحدة منهما
 والزم العافية . واذا دار النيذ في الاقداح فاياك أن تسكر
 وأن يرى القوم منك زلة أو كلمة غلط فتخرج وقد
 انتهكت سترك عندهم . فانك ان خلطت وولعت ومزحت
 فانما هو صفع كله وعداوة بين جيرانك . اشرب خمسة
 أقداح أو ستة أقداح أو سبعة أقداح ولا تسكر . فان
 خشيت على نفسك فقم وأنت صحيح وعقلك معك . وانما
 شرحت لك كل هذا تفصيلا رغبة في اسداء النصيحة ،
 فافهم تعلم ، وتعلم بأدب . متعك الله بسعة الصدر وطيب
 الأكل والصبر على المضغ ، انها دعوة مغفول عنها
 وسكت أشعب . وسكت تلميذه . واذا جماعة من
 أصحابهما الطفيليين قد أقبلوا يتصايحون مهملين فعلم

أشعب أنها وليمة . فوثب على قدميه وقام التلميذ لقيامه .
وصاح أشعب فى الجماعة :

— أين ؟

فقالوا :

— اتبعنا

فشمر عن ساقيه وقال لهم :

— بل اتبعونى أنتم !

فساروا فى أثره . ومشى هو على رأسهم ، ينظر الى
السماء ويدعو الله قائلا :

— اللهم لا تجعل البواب لكازا فى الصدور ، دفاعا
فى الظهور ، طراحا للقلانس . هب لنا رأفته وبشره
وسهل لنا اذنه !

وبلغوا بابا كبيرا قد رش الطريق أمامه وكس .
فاعتدل أشعب ، وانتفخ فى ثيابه ، وشمخ بأنفه وسار
متهاديا متعاليا متباطئا . ودخل غير ناظر الى البواب .
فأفسح له البواب غير مجترىء على اعتراضه . وقد ظن
أنه ذو مقام . وتبعه صبيانهم وهم يشيرون اليه وينظرون
الى البواب كأنهم يقولون له :

- نحن أصحابه وخلاته

واستجاب الله دعاء أشعب ، فيسر له الدخول . وما
شعر أن قدميه في الدار هو وأصحابه حتى أسرع فجلس
وأجلسهم حوله . . . ودعى بالطعام ، وحضرت الموائد ،
وكان كل جماعة على مائدة لكثرة الناس . ونظر أشعب
الى مائدة شهية توضع أمامهم . فالتفت الى أصحابه وقال
لهم :

- افتحوا أفواهكم ، وأقيموا أعناقكم ، وأجيدوا اللف ،
واشرعوا الأكف ، ولا تمضغوا مضغ المتعللين الشباع
المتخمين ، واذكروا سوء المنقلب وخيبة المضطرب !
وشمر عن ساعده . واذا تلميذه قد تعلق بكمه قائلاً
له :

- انصحنى !

فنظر اليه شزرا . فليس هذا وقت النصائح . والكلام
الساعة يفوت عليه المنفعة ، وأية نصيحة يطلبها هذا أكثر
من وجود الطعام ذاته بين يديه ؟ ولكنه عاد فتذكر هدايا
صبيه وأطباقه في أوقات العسر والمحنة فتلطف له وقال :
- انظر الى ولا تخالفني على كل ما أقول !

وجاءوهم بقصعة عليها « سمذان » ، فقال أشعب
لتلميذه :

— كل من الأحمر . فان فيه طعمين : طعم السكر
وطعم الزعفران

ولم يدعه يأكل غيره ، ثم أتوهم « بالهريسة » فقال
أشعب لصبيه :

— كل منها لقمة أو لقتين أو ثلاثا

فأكل التلميذ القدر الذي أمر به ، ولم يزد ، وجاءوهم
« بالزيرباج » الأحمر
فقال أشعب :

— كل لقمة أو لقتين

ثم أتوهم بالقلايا اليابسة فقال :

— لا تأكل الا لقمة أو لقتين ولا تكثر ، وأولع بهذا
الحبز اليابس الذي في القلية !

ثم جاءوهم « بالبقلية » فقال له :

— كل لقمة أو لقتين

ثم أتوهم بالشواء ، فقال له :

- لا تأكل منه شيئا وأبق نفسك ، فأنا فى كل يوم
نصيب الشواء « بدانق » يقوم مقام هذا ويكفيك
ثم جاءوهم « بالفالودج » ، وكان كثيرا شبيها بالصومعة ،
فقال لتلميذه :

- ايت من تحت حتى ينهار ، وكل وأكثر ، فانك
لا ترى هذا فى كل يوم

ثم أحضروا لهم « اللوزينج » فقال له :

- أزوج وثلاث ، فان مت فى هذا مت شهيدا !

ثم أتوهم بطبق عليه دجاج مسمن مشوى ، فهوى
عليه وأكل منه اثنتين أو ثلاثا وقال لصاحبه :

- كل ولا تقصر ، فان قيمة هذه ثلاثة دنانير ، فلا
تأكل الا ما له قيمة !

ولبت أشعب وأصحابه على هذه الحال . وقد شغلهم
أمر بطونهم عن مائدة عظيمة فى ناحية من المكان قد
وضعت أمام والى المدينة . ولم يفتن أشعب الى وجود
الوالى . ولكن والى فطن اليه . وعرفه ، ولكنه كتم
ذلك . ومال الى صاحب البيت وقال له :

- من صاحب القلنسوة الطويلة والطيلسان الاخضر ؟
فقال صاحب الدار :

- أصلح الله الأمير ، هذا رجل يقال له أشعب ،
يشهد هذه الولاثم دعى أو لم يدع
فقال الوالى :

- اذا أكل جثنى به

وفرغ الناس من الطعام ، ورفعت الموائد . فأسرع
صاحب البيت الى أشعب وأحضره الى الوالى . فلما صار
بين يديه ، قال له الوالى :

- هل دعاك أحد الى هذه الوليمة ؟

فوقع أشعب فى الحيرة وقال :

- لا ، أصلحك الله !

فقال الوالى :

- ألا تعلم أن من جاء الى طعام لم يدع اليه دخل
سارقا وأكل حراما ؟

فقال أشعب :

- لا والله ما أكلت الا حلالا

فنظر اليه الوالى دهشا :

- كيف ذلك ؟

فأجاب أشعب :

- أليس يقول صاحب الوليمة للخباز : « زد فى كل شىء » ؟ واذا أراد أن يطعم مائة قدر مائة وعشرين وهو يقول : « قد يجيئنا من نريد ومن لا نريد » ؟!. فأنا ممن لا يريد

فابتسم الوالى وأعجبه الجواب وقال لأشعب :

- لقد اقتصصنا منك فيما مضى . ذاك حق المسلمين ولكن اليوم سألنى حاجتك ؟

فقال أشعب :

- أطل الله بقاء الأمير . حاجتى : تكتب لى منشورا لا يدخل على أحد فى هذه الصناعة الا ويدى عليه مطلقه فضحك الوالى وهمس فى أذن صاحب الوليمة ثم أمر لأشعب بهدية ، وأمر صاحب الوليمة له أيضا بهدية . فخرج أشعب بأطباق من كل لون ...

ضیفِ ثقیل

لبث أشعب أياما يسير فى الاسواق فى غير شئ، ينتظر
أن يوافيه أحد بخبر عرس أو وليمة وهو يشد ويفنى :
كل يوم أدور فى عرصة الدار

أشم القطار شم الذباب
فإذا ما رأيت آثار عرس
أو دخان أو دعوة الأصحاب
لم أعرج دون التقحم لا أرهب
سبا أو لكزة البواب
وطال انتظاره . ووقف على رجل يعمل طبقا من
الخيزران فقال له :

- أسألك بالله أن توسعه قليلا وأن تزيد فيه طوقا أو
طوقين

فرفع الخيزرانى رأسه وقال له :

- وما غرضك من ذلك ؟ أتريد أن تشتريه ؟

فقال أشعب :

- لا ، ولكن ربما اشتراه شخص يهدى الى فيه شيئا
ذات يوم

ثم تركه ومشى . فرأى رجلين يتهامسان ويتساران
فى طرف السوق . فوقف على مقربة منهما ينظر اليهما .
واذا تلميذه قد أقبل يقول له :

- لقد بحثت عنك فى مجلسك من السوق

فقال له أشعب على عجل : « أوليمة ؟ »

- لا . ولكنه الشوق الى حديثك

فأشاح أشعب بوجهه عنه . وعاد الى النظر فى وجه
الرجلين المتهامسين ، حتى افترقا وذهبا . فقال له تلميذه :
- أتعرفهما ؟

فقال أشعب وهو ينصرف خائبا مع صاحبه :

- لا ، ولكنى ما رأيت اثنين يتساران الا ظننتهما يأمران
لى بشئ

وأطرق أشعب لحظة ، ثم رفع رأسه وقال لصاحبه :

- كأننى بك لا تريد أن أزيدك فى النصح ؟

فنظر اليه تلميذه :

— لماذا ؟

فقال أشعب متخابئا :

— ذلك أنى أرى أطباقك قد انقطعت

فقال الرجل :

— ليس عندى الآن ما يهدى

فقال أشعب :

— أو ليس عندك ما يؤكل ؟

فأجاب الرجل :

— اذا شئت فان دارى دارك . فأنت ليس منك حشمة

وقاد الرجل أشعب الى بيته وأنزله ضيفا عليه . ودخل

على امرأته فأوصاها أن تعد لأشعب عشاء طيبا . وأكل

أشعب ، ثم نظر فى الدار وقال :

— عجبا ! أرى أنك من استواء الحال على قدر تحمد

الله عليه . فما شأنك وصناعة التطفيل ؟

فقال الرجل :

— لقد علقتهى ولا طاقة لى بتركها

فقال أشعب :

- لو أضفتنى عندك أياما أنصحك ، لما تركتك الا وقد
حذقتها حذقا عظيما !



مكث أشعب فى دار الرجل أياما طويلة حتى ضجر
وضجرت امرأته فقالت المرأة لزوجها ذات ليلة :
- يبقى الى متى ؟

- كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه ؟

فقالت المرأة بعد تفكر :

- أنا أجيثك بالخبر

فقال زوجها :

- كيف تستطيعين ؟

فقالت :

- الق بينى وبينك شرا وتحاكم اليه وأجاذبه الحديث

ونهبنا من ساعاتهما فتشاجرا وتظاهرا بالغضب

والخصومة ، وانطلقت المرأة الى أشعب تقول له :

- بالذى يبارك لك فى ذهابك غدا ، أينما أظلم ؟
فقال أشعب :

- والذى يبارك لى فى مقامى عندكم شهرا ، ما أعلم !
فأدركت المرأة وأدرك زوجها أن أشعب يطعم فى
طول المقام . فسقط فى أيديهما . ولم يعلما ما يصنعان .
واغتاض الرجل وفكر حتى اهتدى الى حيلة ، فقال
لامرأته :

- اذا كان غدا فانى أقول له : « كم ذراعا تقفز ؟ » فأقفز
أنا من العتبة الى باب الدار ، فاذا قفز هو فأغلقى الباب
خلفه

وكان الغد ، فأحكما التدبير . وجعل الرجل يحتال
فى الحديث مع أشعب حتى قال له :

- كيف قفزك ؟

فقال أشعب :

- جيد

فقام الرجل لساعته فوثب من داخل منزله الى خارج
الدار أذرها وقال لأشعب :

- ثب !

فنهض أشعب ووثب لا الى الخارج ، بل الى داخل
الدار ذراعين . فوجم الرجل ، وقال لأشعب :

- عجبا ! أنا وثبت الى خارج الدار أذرعا ، وأنت
وثبت الى داخل الباب ذراعين ؟!

فقال أشعب من فوره :

- ذراعين الى داخل خير من أربعة الى « برا » !



انفض الناس عن أشعب آخر الأمر ، وهرب منه
تلاميذه ومريدوه فقد أيقنوا أنه قد انتهى الى الوقوع على
منازلهم وتطبيق أصول التطفيل على موائدهم . فلبث
أشعب أياما وحيدا حزينا لا يجد أنيسا ولا رفيقا، ولا يظفر
بغداء ولا بعشاء . وخطر على باله صديقه بنان . ولم يدر
أين اختفى . فخرج يبحث عنه حتى قنط من الاهتداء
اليه ، فقعده في أول السوق يفكر في أمر غده . واذا بنان
قد أقبل يحمل قوسا ونشابا ويجر كلبا ، فما رآه أشعب
حتى صاح به :

- أين كنت ؟ أخزأك الله !

فقال بنان :

- فى الصيد ، خيبك الله !

- الصيد !

- نعم ، صيد الطير والظباء . انه لعمل أجدى عليك

من هذا القعود تنتظر ما لا يجي ، قم معى الى الرزق

الحلال ، تستمتع بالصيد الشهى واللحم الطرى والهواء

النقى ...

فنظر أشعب الى ما فى يد صاحبه وقال :

- وأين لك بالقوس والنشاب ؟

- بعث خاتمى واشتريت كل ما ترى

- وأنا ماذا أصنع ؟

- اصنع مثل ما صنعت أنا

- ليس عندى شىء يباع

- أوليس عند امرأتك أو عيالك شىء ؟

فنهض أشعب لوقته ، وقال لبنان :

- انتظر ها هنا حتى أعود

ومشي الى بيته . وأشعب لا يذكر بيته الا يوم تضيق
به الدنيا ، فصادف الكندي بالباب ...

فما رآه الكندي حتى خف اليه وعانقه عناق المشتاق
وقال له في صوت العتاب :

— ألا عدتني وقد كنت مريضا ؟

فقال أشعب :

— جعلت فداك ، متى مرضت ؟

فقال الكندي :

— بعد أربعين يوما من تاريخ اليوم الذي أهديتك فيه

القميص

فقال أشعب وهو يحسب عدد الأيام في نفسه :

— بعد أربعين يوما من تاريخ البعثة بالقميص ! أي

منذ متى على التحقيق ؟ ان هذا التاريخ والله ولا التاريخ

القبطي !

ثم ترك الحساب والتفت الى الكندي قائلا :

— الحمد لله على كل حال ، اذ رأيتك وقد رد الله

اليك العافية

ورأى أشعب أن ينتفع بهذا الشوق والود . وحدثه
نفسه أن يفضى الى الكندى بما جاء له . فجلس الى جواره
وتحنن وقال :

- لى اليك حاجة

فقال الكندى على عجل :

- ولى اليك أنا أيضا حاجة

فقال أشعب واجما :

- وما حاجتك ؟

فقال الكندى :

- لست أذكرها لك حتى تضمن لى قضاءها

فقال أشعب :

- نعم

فقال الكندى :

- حاجتى أن لا تسألنى هذه الحاجة

فقال أشعب :

- انك لا تدري ما هى

- بلى . قد دريت

- فما هي ؟

فقال الكندي :

- هي حاجة ، وليس يكون الشيء حاجة الا وهي
تخرج الى شيء من الكلفة

فقال أشعب متخابثا :

- هذا حق . ولكن ... أنت خير من يتكلف لي .
وقد جئتك أسألك أن تسلفني وتؤخرني ...

فقال الكندي :

- هاتان حاجتان

فقال أشعب :

- نعم

فقال الكندي :

- واذا قضيت لك احدهما ؟

فقال أشعب من فوره :

- رضيت

فقال الكندي :

- أنا أوخرك ما شئت ولا أسلفك

فيئس أشعب منه . ولم ير في الكلام معه غير انفاق
الوقت في غير طائل . فقام يريد الذهاب
فتفكر الكندي لحظة ثم صاح به :
- والله لا تنصرف خائبا

فوقف أشعب دهشا . ومضى الكندي يقول :
- أما الدرهم فأنت تعلم أن ليس من عادتي اخراجه ،
فهو متى ألقى في الكيس سكن على اسم الله فلا يهان ولا
يذل ولا يزعج . أما اذا شئت فاني أهدي اليك قربة من
عسل الرطب ، جاءتني هدية من البصرة فبعها ان أردت
واقض حاجتك !

فعجب أشعب ، ولم يصدق أذنه ، وأنكر ذلك من
مذهب الكندي ، ولم يعرف جهة تدبيره . وهو يعلم أنه
انما يجزع من الاعطاء وهو عدوه . وأما الإخذ فهو
ضالته وأمنيته ، وأنه لو أعطى أفاعي سجستان وثعابين
مصر وحيات الأهواز لأخذها اذا كان اسم الإخذ واقعا
عليها . فكيف يعطيه هذه الهدية التي جاءت ، بهذا الكرم ؟
وجعل أشعب يحتال عليه ليعرف منه السبب . والكندي
يتمنع ويتعسر . ثم باح بسر آخر الامر قائلا :

- هذه الهدية التي جاءتني ، خسائرها أضعاف
مكاسبها ، وأخذها عندي من أسباب الأدبار والدمار
فقال له أشعب :

- لعل أول خسارة احتمال الشكر عليها برد نظيرها !
فقال الكندي :

- هذا لم يخطر لي قط على بال
فقال أشعب :

- هات اذن ما عندك من الأسباب
فقال الكندي :

- أول ذلك كراء الحمال الذي ينقلها الى البيت . ثم
هي على خطر حتى تصير الى منزلي ، فاذا صارت الى
المنزل صارت سببا لطلب العصيدة والأرز . فان بعثها
فرارا من هذا ، صيرتموني شهرة وشنعة ، وان أنا
حبستها ذهبت في العصائد وأشباه العصائد، وجذب ذلك
شراء السمن ، ثم جذب السمن غيره ، وان أنا جعلت
هذا العسل نبيذا ، احتجت الى كراء القدور والى شراء
الماء والى كراء من يوقد تحته والى التفرغ له . فان وليت
ذلك الخادم اسود ثوبها وغرما ثمن الأشنان والصابون .

وازدادت في الطمع على قدر الزيادة في العمل . . فان
تفاضينا وصنعنا النبيذ على رغم ذلك ، وعلم الصديق أو
النديم أن عندي نبيذا دق الباب دق المدل ، فان حجبناه
فبلاء ، وان أدخلناه فشقاء ، اذ لا بد له من دريهم لحم
ومن طسوج نقل وقيراط ريحان ومن أبنار للقدّر
وحطب للوقود ، وهذا كله غرم ، ان رضيت به فقد
شاركت المسرفين وفارقت اخواني من المصلحين ، فاذا
صرت كذلك فقد ذهب كسبي من مال غيري وصار غيري
يكتسب مني وأنا لو ابتليت بأحدهما لم أقم له ، فكيف
اذا ابتليت بأن أعطي ولا آخذ ؟ أعوذ بالله من الخذلان
بعد العصمة



أخذ أشعب القربة فأعطى نصفها عياله وحمل النصف
الآخر الى السوق فباعه بما بلغ . وذهب الى بنان فأخبره
الخبر فضحك ، وضحكا . ثم نهضا . وقال بنان لصاحبه :

— هلم نشتري لك قوسا ، فما معك يكفي لشرائها

فنظر أشعب الى النقود في كفه وقال :

— أنا الآن في أمان من الجوع ليلتين أو ثلاثا أو أربعا

فقال بنان :

— أتضيع رأس المال في طعام ليلتين وتقعّد بعد ذلك
تتضور ؟

فقال أشعب :

— وهل تريد أن أضيع طعاما مضمونا في يدي بطعام
ما زال هائما في الحلاء والسما قد يصاد وقد لا يصاد ؟

واشتد الخلاف بينهما . واحتال بنان حتى أخذ النقود
في يده ، فجذب صاحبه من كفه ومشى به قسرا الى البائع
فاختار له قوسا وضعها في يده . فأمسك بها أشعب ونظر
فيها وهدأ لمنظرها وارتاحت نفسه لحملها

فقال للبائع : « كم ثمنها ؟ »

فقال الرجل : « أقل ثمنها دينار »

فصاح أشعب :

— دينار ! والله لو أني اذا رميت بها طائرا في السماء
وقع مشويا بين رغيفين ، ما دفعت فيها دينارا أبدا !

فنظر البائع الى بنان نظرة المستجير . فتدخل بنان في الأمر وقال لصاحبه همسا :

- ليس في الثمن غلو . فلقد اشتريت قوسي هذه بأكثر من دينار !

وذكر بنان أن المال معه ، فلم ينتظر رأى صديقه وأسرع فأعطى البائع الثمن . وجذب ذراع أشعب . وانصرف به ...

لم تمض ساعة حتى كان الصديقان قد خرجا من المدينة وضربا في القلوات ، وأوغلا في الحلاء .. كل يحمل قوسه ونشابيه وخلفهما الكلب . وعيونهما شائعة بين الارض والسماء ، يبحثان عن الصيد . ومضى النهار وهما في مشى وبحث وكد وانتظار ، واذا الكلب ينبح فجأة وينطلق في أثر شيء مر أمامهما كالبرق . فنظرا فاذا ظبي قد عن لهما . فوقفا . ووقف قلباهما من الفرح والاضطراب . وأمسك كل بقوسه . ورمى بنان الظبي فأخطأه . ورماه أشعب فأخطأه وأصاب الكلب . وهرب الصيد ، ومات الكلب . وجلس الصيادان ، وقد أضناهما التعب والجوع والفجيعة في ثالثهما ...

محال ظریف

۱۴۲

طال جلوس الصديقين واطراقهما ، واشتد جوعهما .
فرفع أشعب رأسه وقال لصاحبه :

- قد جربنا صيد الظباء فلنعد الى صيد الموائد

ثم نهض ونظر الى الأفق فوجد نخلا كثيرا فقال :

- أرى قرية قريبة . هلم اليها

وأمسك بيد بنان . وسارا حتى بلغا القرية ، فاذا هما
أمام دار قد مات صاحبها ، ونساء القرية يلطنن خدودهن ،
ويضربن صدورهن . ورجالها قد كوى الجزع أفئدتهم .
والميت فى صحن الدار قد سخن مأؤه ليغسل ، وخطت
أثوابه ليكفن . فعلم أشعب وبنان أن لا أكل ولا طعام
فى مثل هذه القرية الليلة . وخطر على بال أشعب خاطر
ودفعه الجوع الى الحيلة ، فغمز صاحبه ، ثم تركه وتقدم
الى الميت فجلس عرقه وصاح فى الناس :

- يا قوم اتقوا الله لا تدفنوه ، فهو حى ، وانما عرته

بهتة . وأنا أسلمه اليكم مفتوح العينين بعد يومين !

فقال الناس :

- من أين لك علم ذلك يا هذا ؟

فقال أشعب :

- ان الرجل اذا مات ، برد استه ، وقد لمست هذا

الرجل فعلمت أنه حى

فتقدم الناس الى الميت وجعلوا أيديهم فى استه ، ثم

قال بعضهم لبعض :

- الا أمر على ما ذكر الرجل ، فافعلوا كما قال ...

وتركوا أشعب يصنع ما يريد ، فقام الى الميت فنزع

ثيابه ثم ألبسه عمامة وعلق عليه تمائم ، وألقه الزيت

وأخلى له الدار ، وقال للناس :

- دعوه ولا تروعه ! وان سمعتم له أنينا فلا تدخلوا

عليه !

وخرج أشعب من دار الميت وقد شاع الخبر بأن الميت

قد ردت اليه الحياة . فانهالت الهدايا على أشعب وبنان

من كل دار . حتى ورم كيسهما فضة وزهبا ، وامتلا

رحلهما سمنا وجبنا وتمرا . وجهدا فى أن ينتهزا فرصة

للهرب فلم يجدها حتى حل الأجل المضروب . وأقبل
الناس على أشعب بعد يومين يستنجزونه الوعد ، فقال
لهم :

- هل سمعتم لهذا العليل أنينا أو رابتكم منه حركة ؟
فقالوا :

- لا

فقال لهم :

- ان لم يكن قد تحرك بعد أن فارقتاه ، فلم يجيء
بعد وقته . دعوه الى غد ، فاذا سمعتم صوته فعرفوني
لاؤحتال في علاجه ، واصلاح ما فسد من مزاجه

فقالوا : لا تؤخر ذلك عن غد !

فقال : « لا »

وجأ الصباح وانتشر الضوء ، فجاءه الرجال والنساء
أفواجا وصاحوا به :

- نحب أن تشفى المريض ، وتدع القال والقيـل
فقال أشعب :

- قوموا بنا اليه !



« فسقطت على أشعب النعال ، ولطمته الاكف »

وذهب معهم الى الميت ، فحذر عنه التمايم وقال لهم :

- أنيموه على وجهه !

فأناموه . فقال لهم :

- أقيموه على رجله !

فأقاموه . فقال لهم :

- خلوا عن يديه !

ففعلوا . فسقط الميت رأسيا . ولم يدر أشعب ما يفعل

ولا ما يقول ، ولم يزد على أن همس :

- انه حقيقة ميت !

فسقطت على أشعب النعال ، ولطمته الاكف . وتناولوه

القوم بالصفع والضرب ، وصار اذا رفعت عنه يد وقعت

عليه أخرى . ثم تشاغل الناس بتجهيز الميت ، فانسى

أشعب وبنان هاربين حتى أتيا قرية أخرى على شفير واد ،

قد جار عليها السيل . وأهلها مقتمون مخزونون من

خشية الفرق . فتقدم بنان وقد حدثته نفسه أن يبرز

صديقه فى الاحتيال ، فنظر اليه وابتسم ، ثم صاح فى

أهل هذه القرية :

- يا قوم ! أنا أكفيكم شر هذا الماء . وأرد عن هذه

القرية ضرره . فأطيعوني !

فالتفت الناس الى بنان في رجاء وقالوا له في الحال :

— وما أمرك ؟

فقال بنان :

— اذبحوا في مجرى هذا الماء بقرة صفراء ، وأتوني
بجارية جميلة عذراء ، وصلوا خلفي ركعتين لله . فان
فعلتم ذلك اتيتي الماء عنكم الى هذه الصحراء . فان لم
يتن فدمي عليكم حلال !

فقالوا جميعا :

— نفعل

وقاموا من ساعتهم فذبحوا البقرة ، وزوجوه الجارية،
وقام بنان الى الركعتين يصليهما ، وهو يقول :

— يا قوم ! احفظوا أنفسكم لا يقع منكم سهو في
القيام أو في الركوع ، فمتى سهونا أو هفونا ذهب عملنا
باطلا . واصبروا على الركعتين فمسافتهما طويلة !..

وقام بنان للركعة الأولى فأطال الوقوف حتى كادت
تنخلع أضلاع الناس . وسجد سجدة ظنوا معها أنه قد

راح فى سبات . ولم يجرؤوا على رفع الرؤوس خشية
أن يذهب جهدهم فى غير طائل . الى أن جاء وقت
السجدة الثانية ، فأومأ بنان الى أشعب ، وانسلا ، فأخذوا
طريق الوادى ، وتركوا أهل القرية ساجدين ، لا يدرى
أحد ما صنع الدهر بهم



مشى أشعب يحمل الزاد والمال ، ومشى خلفه بنان
مع الجارية الحسنة التى زوجها منه وجعلوا يضربون فى
الفلاة على غير هدى ، حتى أشرفوا على الهلاك . وإذا
هم يسمعون صهيل خيل ، فالتفتوا فوجدوا جماعة
مسافرين الى البصرة ، فركبوا معهم . وقد اطمأنت قلوبهم
وأمنوا على أنفسهم وعلى الغنمة ، وما كادوا يوغلون فى
بطن الصحراء . حتى عن لهم فارس ، جعل ينظر فى
القوم ، الى أن وقع بصره على أشعب ، ورآه وحيدا
منفردا بين الجماعة ، فنزل عن فرسه ، وتقدم اليه وقبل
قدميه ، فنظر اليه أشعب ، فوجد وجهها متهللا ، لفتى
أخضر الشارب ، ملائح الساعد ، قوى العضل ، ظريف
اللحظ لطيف الحديث

فقال له :

— مالك ؟

فقال الشاب :

— أنا عبد بعض الملوك هم يقتلني ، فهمت على وجهي
الى حيث تراني وأنا اليوم عبدك ومالي مالك
فقال أشعب :

— بشري لك وبك !

ورأت الجماعة ذلك ، فغبطت أشعب على هذا العبد
وهنأته ، وجعل العبد ينظر فقتلهم ألاحظه ، وينطق فقتلهم
ألفاظه . ثم قال :

— يا سادة ! ان في سفح هذا الجبل عينا ، وقد ركبتهم
فلاة طويلة ، فخذوا من هنالك الماء !

فلووا أعنة الجياد الى حيث أشار . وبلغوا الجبل وقد
صهرت الهاجرة الابدان

فقال لهم :

— ألا تقيلون في هذا الظل الرحب ، على هذا الماء
الزلال ؟

فقالوا : أنت وذاك

فنزّل عن فرسه . وحل منطقته . فما استتر عنهم الا بغلالة تنم على بدنه ، فما شكوا أنه خاصم الولدان ففارق اللجنة وهرب من رضوان . وعمد الى السروج فحطها والى الخيل فحش لها العشب . والى الأُمَكة فكنسها ورشها وقد حارت البصائر فيه ووقفت الابصار عليه فقال له أشعب :

- يا فتى ! ما أطفك في الخدمة وأحسنك في الجملة !
كيف أشكر الله على النعمة بك !
فقال :

- ما سترونه مني أكثر . أتعجبكم خفتي في الخدمة وحسني في الجملة ؟ فكيف لو رأيتموني في الجـد والفروسية ، أريكم من حذقي طرفا لتزدادوا بي شغفا؟؟
فقالوا جميعا :
- هات !

فعند الى قوس أشعب فأخذها ورمى في السماء سهما ، وأتبعه بآخر شق أجواز الفضاء وقال :

- سأريكم نوعا آخر !

ثم عمد الى كنانة بنان فحملها والى أكرم جواد من
جباد القوم فامتطاه . ثم رمى أحد الجماعة بسهم أثبتته في
صدره ، وعاجل آخر بسهم طيره من ظهره

فصاح أشعب :

- ويحك ! ما تصنع ؟

فقال الفتى ، وقد تغير صوته :

- أسكت يا لكع ! فليشد كل منكم يد رفيقه والا
اختطفت روحه !

فلم يدر القوم ما يصنعون ! .. فخيّلهم مربوطة وسرّ وجههم
محطوطة وأسلحتهم بعيدة ، وهو راكب وهم على أقدامهم ،
والقوس في يده يرشق بها الظهور ، ورأت الجماعة الجد
والعزم في عين الفتى ، فشدد بعضهم بعضا من الخوف
وبقى أشعب وحده لا يجد من يشد يده . فقال له الفتى :

- اخرج بجلدك عن ثيابك ومالك ، لا أم لك !

ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منهم بعد
الآخر ، وينزع ثيابه وكيس ماله وزاده ، حتى جردهم

مما يملكون . وعاد فاعتلى فرسه ولكزه لكزه انطلقت به
انطلاق السهم فى كبد الفلاة



جزع القوم فقد فقدوا الزاد ، وهم الآن لا يملكون
الذهب ولا الرجوع . ووقعوا فى حيرة من أمرهم .
فقال قائل ان خير السبل امتطاء خيلهم والامعان فى السير
الى البصرة وهى من موضعهم هذا أقرب البلاد اليهم .
فتزودوا من ماء العين ووثبوا الى أفراسهم، وظلوا سائرين
حتى لاحت لهم قرية فى طرف من أطراف البصرة ،
وكان الجوع قد أوشك أن يقتلهم . فما بلغوا أول دار
من دور القرية حتى وثبوا من فوق أفراسهم فوجدوا
أنفسهم أمام رجل شيخ قد جلس على باب داره ، فنظر
اليهم وقال :

— من أنتم ؟

فقالوا :

— أضياف لم يذوقوا شيئا يؤكل منذ ليل ثلاث

فابتسم الرجل وقال :

- اجلسوا !

وسكت طويلا . ثم نظر في وجوههم مليا ، ثم تنهد ،
ثم ابتسم ، ثم تنحنح وقال لهم :

- ما رأيكم يا فتیان فی زبدة متوجة بعجوة خیر
الواحدة منها تملأ الفم ويوحل فيها الضرس ، عليها لبن
قد حلب من نوق مسمنة ، أشتھونها یا فتیان ؟
فقالوا جميعا :

- ای والله نشتھيها ! . ففقهه الشيخ وقال :

- وعمکم أيضا یشتھيها

وصمت لحظة ، ثم قال :

- ما رأيكم يا فتیان فی عصيدة من دقيق قد نخل حتی
صار كأنه سحالة الذهب ، وسمن عربی بصری أنضج
حتى قال « بق بق بق » ، علی حواشيها رفاق ملفوف
بلحم قد نعم قطعه ، وفوه بالآبازير ، ومزج بالبصل ،
وقلى فی الدهن . أفتشتھونها یا فتیان ؟

فاشرأب کل منهم الى وصفه . وتحلب ريقهم وتلمظوا
وتمطقوا . وقالوا :

- ای والله نشتھيها ! ففقهه الشيخ وقال :

- وعمکم والله لا یبغضها . وسكت برهة ، ثم قال :

— ما رأيكم يا فتیان فی عنزة من نجد قد أكلت الشیخ
والقیصوم والهشیم ، حتی وری مخها ، وکثر شحمها
وطاب لحمها . تنضج لکم من غیر امتحاش ، أو انهاء .
وتقدم الیکم علی خوان منضد بالبقل والحبز ، فتوضع
بینکم تساقط عرقا وتسایل مرقا . أفشتھونها یا فتیان؟
فقالوا :

— ای والله نشتھیها !

فقال الرجل :

— وعمکم والله یرقص لها !

ولم تطق الجماعة أكثر من ذلك فوثب بعضهم الى
الرجل بالسيف قائلین :

— ما یکفی ما بنا من عض الجوع، حتی تسخر منا؟ ..

وقاموا وانفضوا عنه وهم یسبونہ ویدعون علیه ...
وأسرعوا فی الدخول الى مدينة البصرة حیث تفرقوا ،
وذهب کل لشأنه . وأخبرت الجارية زوجها « بنان » أن
لها أهلا فی البصرة ، یضیفونہما فانطلق معها بنان الى
أهلها . وترکا أشعب وحده ...

مع الخليفة

جلس أشعب على رأس الطريق وحيدا غريبا في هذا
البلد لا يعرف أحدا فيه . ولا مال معه ولا زاد . وقد
أضر به الجوع ، فجعل يتنهد ويقول لنفسه :
- لعن الله المال الحرام ! كلما جمعناه ، ذهب عنا
سريعا . وعدنا شرا مما كنا !

وسمع خلفه جلبة ، فالتفت ، فرأى عشرة رجال
مجتمعين . فصاح :
- انه الفرج

ونهمض شيطا ، وانسل فدخل وسطهم وهو يقول في
نفسه :

- ما اجتمع هؤلاء الا لوليمة !

ولم يلبث أن جاء من يقود هؤلاء العشرة ويمضي بهم ،
حتى انتهوا الى زورق قد أعد لهم . فأدخلوا الزورق
فقال أشعب لنفسه :

- هي نزهة

ودخل معهم . واذا هو يرى الرجال العشرة قد قيدوا بالحديد ، وقيد هو معهم . واذا هو يعلم أن هؤلاء عشرة من الزنادقة ذكروا بالاسم لأمير المؤمنين ، فأمر أن يحملوا اليه . فجمعوا له . ولم يلبث أشعب أن وجد الزورق قد وصل الى بغداد . واذا هو يساق ضمن العشرة ، حتى أدخلوا على أمير المؤمنين فجعل يدعو بأسمائهم رجلا رجلا ، فيأمر بضرب رقابهم ، حتى استوفى العدة وبقي أشعب . فدهش أمير المؤمنين وقال للموكلين :

- من هذا ؟

فقالوا :

- والله ما ندرى يا أمير المؤمنين ، غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به

فالتفت أمير المؤمنين الى أشعب قائلا :

- ما قصتك ؟ .. ويلك !

فصاح أشعب :

- يا أمير المؤمنين ! امرأتى طالق ان كنت أعرف من
أحوال هؤلاء شيئا ولا مما يدينون الله به . انما أنا رجل
طفيلي رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة
فقال أمير المؤمنين :

- ليس هذا مما ينجيك منى ، اضربوا عنقه !
فصاح أشعب :

- أصلحك الله ، ان كنت ولا بد فاعلا فأمر السيف
أن يضرب بطنى بالسيف فانه هو الذى ورطنى هذه
الورطة !

فالتفت أمير المؤمنين الى رجاله وقال :
- يؤدب

فخرجوا بأشعب وهو ينتفض فى ثيابه رعبا . وكان
وزير الخليفة قائما على رأسه ، فلما رأى ذلك لم يستطع
كتمان ابتسامه ، وما تمالك أن قال :

- يا أمير المؤمنين هب لى ذنبه ، وأحدثك حديثا عجيبا
عن نفسى وقد عشت مثله حياة التطفيل ليلة !
فاشتاق أمير المؤمنين الى الحديث وقال :

- قل أيها الوزير !

قال الوزير :

- خرجت يا أمير المؤمنين من عندك ليلة ، فطفت في
سكك بغداد ، فانتفيت الى موضع ، فشملت روائح أبازير
قدور قد فاح طيها ، فتاقت نفسي اليها ، فوقفت على خياط
فقلت :

- لمن هذه الدار ؟

قال :

- لرجل من التجار

قلت :

- ما اسمه ؟

قال :

- فلان بن فلان

فنظرت الى الدار فاذا بشباك فيها مظل ، فرأيت كفا
قد خرجت من الشباك قابضة على عضد ومعصم . فشغلني
يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور .
وبقيت باهتا ساعة . ثم أدركني ذهني فقلت للخياط :

— أهو ممن يشرب ؟

قال :

— نعم وأحسب أن عنده الليلة دعوة ، وليس ينادمه
الا تجار عملة مستورون

فبينما أنا كذلك اذ أقبل رجلان نيلان راكبان من
رأس الدرب فقال الحياط :

— هؤلاء منادموه

فقلت :

— ما أسماهما ؟ وما كناهما ؟

قال :

— فلان وفلان

فحركت دابتي وداخلتهما . وقلت لهما :

— جعلت فداكما ، قد استبطأكما أبو فلان أعزه الله

وسايرتهما حتى بلغا الباب . فأدخلاني وقدماني .

فدخلنا . فلما رآني صاحب المنزل لم يشك أني منهما

بسييل ، أو قادم قدمت عليهما من موضع . فرحب بي

وأجلسني في أفضل مكان . وجيء بالمائدة وعليها خبز

نظيف ، وأتينا بتلك الألوان ، فكان طعمها أطيب من
ريحها . فقلت فى نفسى :

— هذه الألوان قد أكلتها ، وبقي الكف والمعصم كيف
أصل الى صاحبتها ؟

ثم رفع الطعام ، وجاؤونا بوضوء فتوضأنا ، وصرنا الى
بيت المنادمة فاذا أجمل بيت يا أمير المؤمنين . وجعل
صاحب المنزل يلطف بى ويميل على بالحديث ، والندماء
لا يشكون أن ذلك منه على معرفة متقدمة . حتى اذا
شربنا أقداحا ، خرجت علينا جارية كأنها بان ، تتنى
كالخيزران . فاقبلت فسلمت غير خجلة ، وثبت لها
وسادة فجلست ، وأتى بالعود فوضع فى حجرها ،
فجسته فاستبنت فى جسها حذقها . ثم اندفعت تغنى :

توهمها طرفى فأصبح خدها

وفيه مكان الوهم من نظرى أثر

وصافحها كفى فألم كفها

فمن مس كفى فى أناملها عقر

فطربت يا أمير المؤمنين لحسن غنائها . ثم اندفعت تغنى :

أشرت إليها : هل عرفت مودتي ؟

فردت بطرف العين : انى على العهد
فحدث عن الاظهار عمدا لسرها

وحادث عن الاظهار أيضا على عمد

فصحت : « يا سلام ! » ... وجاءنى من الطرب مالا
أملك نفسى . ثم اندفعت فغنت الثالث :

أليس عجيبا أن بيتا يضمنى

واياك لا نخـلو ولا نتكلم ؟

سوى أعين تشكو الهوى بجفونها

وتقطع أنفاس على النار تضرم

اشارة أفواه وغمز حواجب

وتكسير أجفان وكف يسلم

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء ،
وأصابتها لمغنى الشعر ، وأنها لم تخرج عن الفن الذى

ابتدأت به ، فقلت : « بقى عليك يا جارية ... » ، فضربت
بعودها الأرض وقالت : « متى كنتم تحضرون مجالسكم

البغضاء ! » فندمت على ما كان منى ، ورأيت القوم كأنهم
تغيروا الى . فقلت : « أما عندكم عود غير هذا ؟ » . قالوا :

«بلى» ، فأحضروا لى عودا فأصلحت من شأنه ، ثم غنيت :

ما للمنازل لا يجبن حزينا

أصممن أم قدم المدى قبلنا

راحوا العشيّة روحة منكورة

ان متن متنا أو حين حيننا

فما أتممته حتى قامت الجارية فأكبت على رجلى تقبلها

وقالت :

— معذرة اليك ، فوالله ما سمعت أحدا يغنى هذا

الصوت غناءك !

وقام مولاها وأهل المجلس ففعلوا فعلها، وطرب القوم

والله واستحسوا الشراب ، فشرّبوا بالكاسات والطاسات

ثم اندفعت أغنى :

أبى الله أن تمسى ولا تذكريننى

وقد سنفحت عيناى من ذكرك الدما

فردى مصاب القلب أنت قتلته

ولا تتركه ذاهل العقل مفرما

الى الله أشكو بخلها وسماحتى

لها غسل منى وتبذل علقمها

فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم . فأمسكت عنهم
ساعة حتى تراجعوا . ثم اندفعت أغنى الثالث :

هذا محبك مطوى على كمد

حرى مدامه تجرى على جسده

له يد تسأل الرحمن راحته

مما جنى ويد أخرى على كبده

فجعلت الجارية تصيح :

— هذا هو الغناء والله يا سيدي ، لا ما كنا فيه !

وسكر القوم . وكان صاحب المنزل حسن الشرب

صحيح العقل ، فأمر غلمانَه أن يخرجوهم ويحفظوهم

إلى منازلهم وخلوت معه

فلما شربنا أقداحا قال :

— يا هذا ، ذهب ما مضى من أيامي ضياعا إذ كنت

لا أعرفك ، فمن أنت يا مولاي ؟

ولم يزل يلح حتى أخبرته الخبر . فقام وقبل رأسي

وقال :

— وأنا أعجب يا سيدي أن يكون هذا الأديب إلا

لمثلك ، وأنى لي أن أجالس رجال الخلفاء ولا أشعر !

ثم سألتني عن قصتي فأخبرته ، حتى بلغت خبر الكف والمعصم ..

فقال للجارية :

- قومي فقولي لفلانة تنزل

ثم لم ينزل ينزل لي جواريه واحدة بعد أخرى، وأنظر الى كفها ومعصمها وأقول :

- ليست هي

حتى قال : والله ما بقي غير زوجتي وأختي ، والله لا أنزلنهما اليك

فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت :

- جعلت فداك ، ابدأ بالأخت قبل الزوجة ، فعساها هي !

فبرزت . فلما رأيت كفها ومعصمها

قلت : هي هذه !

فأمر غلمانه فمضوا الى عشرة مشايخ من جلة جيرانه ، فأقبلوا بهم ، وأمر بديرتين فيهما عشرون ألف درهم فقال للمشايخ :

— هذه أختي فلانة أشهدكم أنى قد زوجها من سيدى
الوزير ، وأمهرتها عنه عشرين ألفاً

ثم دفع اليها البدره . وفرق الأخرى على المشايخ
وقال لهم : « انصرفوا »

ثم قال لى : « يا سيدى ، أمهد لك بعض البيوت فتنام
مع أهلك ؟ »

فاحتشمنى ما رأيت من كرمه ، فقلت :

— بل أحملها الى منزلى

قال : « ما شئت »

فحملتها الى منزلى . فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتبعها
من الجهاز ما ضاق عنه بعض بيوتنا ! .. »



عجب أمير المؤمنين لحديث وزيره ، ولتطفيله الظريف
تلك الليلة ، فأمر باحضار أشعب الطفيلى . فجاء أشعب
يتعثر خوفاً . فابتدره الخليفة قائلاً :

— هل لك فى « ثريدة » مغمورة بالزبد ، مشققة
باللحم ، تفوح بروائح الأُبازير ؟

فقال أشعب :

- وأضرب كم ؟

فكنتم أمير المؤمنين ضحكة وقال :

- بل تأكلها من غير ضرب

فنظر أشعب الى الخليفة مليا ثم قال :

- هذا ما لا يكون ، ولكن كم الضرب فأتقدم على

بصيرة ؟

فضحك الخليفة ، وضحك الوزير . ثم التفت الخليفة

الى أشعب قائلاً :

- قد علمت أنك ذو بصر بالطعام . فما تقول فى

« اللوزينج » و « الفالودج » ... أيهما أطيب ؟

فأجاب أشعب :

- يا أمير المؤمنين ، لا أقضى على غائب

فأمر الخليفة ، فأحضرت مائدة عليها هذان اللوزان .

وقال لأشعب :

- اقض بينهما الآن

فانقض أشعب من فرط جوعه على الخوان . وجعل

يأكل من « الفالودج » ساعة ، ومن « اللوزينج » ساعة
وهو ساكت لا ينبس بحرف . وقد انتفخ فمه بالطعام
وازدحم حلقه من الازدرداد . فقال الخليفة :

— قل ... أيهما أطيب ؟

وقال الوزير :

— اقض لأحدهما

فتردد أشعب وحرار بين اللونين . ثم عاد فأخذ من هذا
لقمة ومن ذاك لقمة . وقال :

— يا أمير المؤمنين ! كلما أردت أن أقضي لأحدهما
أدلى الآخر بحجته

فضحك الخليفة واستظرفه وقال له :

— تشه على .. أى لون تريد ؟

فاطمأن أشعب وقال مترنما :

ألا ليت خبزا قد تسربل رائباً

وخيلاً من البرنى فرسانها الزبد

فأمر الخليفة أن يحضر له ما اشتهى . وجعل ينظر
إليه وهو يأكل حتى فرغ . فقال له :

— شبعث ؟

فقال أشعب :

— نعم أطال الله بقاء أمير المؤمنين

وتأمل الخليفة ثياب أشعب فلم ترقه . وقال له :

— لست أرى عليك كسوة رائعة !

فلم يجد أشعب ما يقول . ثم تفكر وقال :

— كانت على أصلحك الله ثياب نظيفة . غير أنى قبل

أن يأتوا بى الى أمير المؤمنين كانت قد أخذتنى اغفاءة ،

فرايت رؤيا نصفها حق ونصفها باطل

فقال الخليفة دهشا :

— وكيف ذلك ؟

فقال أشعب :

— رأيت أنى أحمل بدرة من ذهب ، فمن شدة ثقلها

على كنت أسلح فى ثيابى . ثم انتبهت . فاذا أنا بالسلح

... ولا بدرة

فضحك أمير المؤمنين حتى استند الى الوسادة وقال :

- نحقق لك النصف الآخر . ولكن أخبرني قبل ذلك . ممن أنت ؟

فقال أشعب :

- من المدينة يا أمير المؤمنين

فقال الخليفة :

- وكيف وجدوك بالبصرة ؟

وتذكر أشعب كل ما وقع . فرأى الخير في أن يوجز فقال :

- خرجت من المدينة للصيد فضلت ، وإذا أنا في البصرة

فنظر أمير المؤمنين إليه مليا وقال له :

- وهل صدت شيئا ؟

فتنحى أشعب وقال كالمخاطب لنفسه :

- صدت الكلب

فضحك الخليفة . وأعجبه حديثه . ولبث يصغي إليه والى نوادره ساعات طويلة : ثم قال له آخر الأمر :

- سل حاجتك !

فقال أشعب :

— كلب صيد أصطاد به

فقال الخليفة متعجبا ضاحكا :

— قد أمرنا لك بكلب تصطاد به

فقال أشعب :

— وغلام يقود الكلب

فقال أمير المؤمنين :

— قد أمرنا لك بغلام

فقال أشعب :

— وخادم تطبخ لنا الصيد

فقال الخليفة :

— وأمرنا لك بخادم

فقال أشعب :

— ودار ناوى اليها

فقال الخليفة :

— أمرنا لك بدار

فقال أشعب :

— بقى الآن المعاش —

فقال أمير المؤمنين :

— قد أقطعناك ألف «جريب» عامرة ، وألف «جريب»

عامرة

فقال أشعب :

— وما العامرة ؟

فقال الخليفة :

— التى لا تعمر

فقال أشعب من فوره :

— فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفا من صحارى

نجد وفيافى بنى أسد !

فضحك أمير المؤمنين وقال :

— نجعلها لك اذن كلها عامرة

فقال أشعب :

— لم يبق الآن الا شيثان

فقال الخليفة :

— هات

فقال أشعب :

- أن تقيم معى فى هذه الضياع جارية حسنة الصوت
كنت أعلمها الغناء بالمدينة . يقال لها « رشأ » !
- وكيف هى ؟

فتنهّد أشعب وقال مترنما :

كانها أفرغت فى قشر لؤلؤة
فى كل جارحة منها لها قمر

فقال الخليفة :

- قد زوجناك منها وأمهرناها عنك عشرين ألف
درهم ! تلك واحدة . فما الأخرى ؟
فقال أشعب :

- الأخرى أن تسمح لى يا أمير المؤمنين أن أعتزل
صناعة التطفيل ، وأن أستخلف عليها خليفة من بعدى ،
وأن أكتب بذلك عهدا الى صديق لى يدعى بنان ليكون
هو منذ اليوم امام الطفيلين وعريفهم
فضحك الخليفة وقال :

- وذلك أيضا لك

ثم دعى بالكاتب والقرطاس . وقال لاشعب يملئ عهده

فقال أشعب للكاتب :

— اكتب :

« هذا ما عهد أشعب الى بنان حين استخلفه على احياء سنته واستتابه في حفظ رسومه من التطفيل على أهل المدينة ، وما يتصل بها من أكنافها ، ويجرى معها من سوادها وأطرافها ، وذلك لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ، ولما رآه أهلا له من شدة مكانه في هذه الرفاهية المهيمة التي فطن لها ، والرفاعية المطرحة التي اهتدى اليها . والنعم العائدة على لابسها بملاذ الطعوم ، ومناعم الجسوم ، متوردا على من اتسعت موارد ماله ، وتفرغت شعب حاله ، وأقدره الله على غرائب المأكولات ، وأظفره بدائع الطيبات ، آخذا من كل ذلك بنصيب الشريك المناصف وضاربا فيه بسهم الخليط المفاوض . وهذا عهدى اليه . وحجتي عليه . فليكن بأوامره مؤتمرا ولرسومه متبعا ان شاء الله ، وبالله التوفيق وعليه التعويل ، وهو حسبنا جميعا ونعم الوكيل ... »

وسكت أشعب ونظر فاذا الخليفة ووزيره يتقطعان

ضحكا ، وهذا الخليفة فقال لأشعب :

— هل بقيت لك حاجة لم تقض ؟

فقال أشعب :

— نعم ، حاجة أخيرة

فقال الخليفة :

— قل

فقال أشعب :

— يأذن لى أمير المؤمنين فى تقييل يده

فقال الخليفة :

— أما هذه فدعها

فقال أشعب :

— ما تمنعنى شيئا أحب الى منها !

وأسرع الى يد أمير المؤمنين فاختطفها اختطاف الجائع

للرغيف ، ورفعها الى فمه ، وأشبعها لثما وتقييلا ..

فهرس

صفحة

مقدمة	٥
أشعب وجاريتة رشأ	٩
أشعب والكندى البخيل	١٩
أشعب وبنان	٤٩
أشعب فى مكة	٧١
أشعب فى الحمام	٨٥
حيلة شيطانية	١٠٩
فى العرس	١٢١
ضيف ثقيل	١٤١
محتال ظريف	١٥٧
مع الخليفة	١٧١

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هي خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دارالهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففي الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب في الشرق والغرب ، في اخراج انيق وطباعة متقنة ، وبثمن زهيد لا يرهق أحدا من عشاق القراءة والاطلاع .. وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

العدد	الكتاب	المؤلف	الموضوع
١	عبقريّة محمد	عباس محمود العقاد	تحليل لشخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم
٢	ماجلان : قاهر البحار	ستيفان زفايج	قصة طواف ماجلان حول الارض
٣	هرون الرشيد	أحمد أمين بك	الحياة العامة والخاصة للخليفة هرون الرشيد
٤	أبو الشهداء	عباس محمود العقاد	قصة استشهاد الإمام الحسين رضي الله عنه
٥	جنكيز خان	ف . يان	الحياة الحربية والسياسية لجنكيز خان
٦	قلب النسر	أوكتاف أوبرى	قصة غرام نابليون وجوزفين

العدد	الكتاب	المؤلف	الموضوع
٧	السيد عمر مكرم	محمد فريد أبو حديد بك	قصة حياة أول زعيم شعبي لمصر الحديثة
٨	غاندى : الثائر القديس	لويس فيشر	قصة أشهر زعيم سياسي روعي في الشرق
٩	زعيم الثورة : سعد زغلول	عباس محمود العقاد	قصة الثورة في حياة الزعيم الخالد سعد زغلول
١٠	بطلة كربلاء : زينب بنت الزهراء	الدكتورة بنت الشاطئ	قصة زينب بنت الزهراء ودورها الخالد في معارك كربلاء

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من دار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة ، وشركة الصحافة المصرية بشارع النبي دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمي صاحب المكتبة المصرية شارع المتنبي ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، واكشاك الصحف



Princeton University Library



32101 060747068